الفصل الثاني

مقالات في الأخلاق والسلوك

أولاً: أداء الأمانة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل، وأنزل الكتب **لبناء الإنسان الصالح القويم**، وتربيته على المنهج الرشيد، وجعل من **أهم أركان** بنائه وتربيته **الأخلاق السامية**، والفضائل الحميدة، وأعلن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وبين ذلك القرآن الكريم تنويهاً بالأخلاق، وتشريفاً لنبيه المصطفى ﷺ، فقال تعالى مخاطباً به: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ولكن لا بدّ من التنبيه والتذكير أن **الإسلام سلسلة متماسكة الحلقات، ومترابطة الجوانب**، لا ينفك بعضها عن بعض، لأنها تشكل بناء متكاملاً من الإيمان، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وهي متصلة مع بعضها، متداخلة فيما بينها، متشابكة في أسّها وتفصيلها، متداخلة في أصولها وفروعها، نظرياً وعملياً، وكل انفصام بينها يشوه معالمها، ويطمس جوهرها، وكل إساءة في بعضها تؤثر حتماً في الباقي، ولا يمكن أن تنفصل العقيدة والإيمان عن العبادة والأخلاق والمعاملات، والعكس بالعكس، وإلا جاء المنظر غريباً، وكان العمل مشلولاً.

والأمانة إحدى القيم الأخلاقية التي يمجدها الدين، ويدعو إليها الإسلام، ويقررها علم الأخلاق قديماً وحديثاً ومستقبلاً، وتتفق مع العقل، ويسعى لتأمينها العلماء والدعاة والحكماء، والمصلحون والمربون، وهي الأمل المرتجى لكل إنسان عاقل سوي.

والأمانة اسم لكل ما يُؤمَّن عليه الإنسان، ويوضع عنده، ويحفظ لديه، لغرض معين، وغاية محدودة، كما تشمل الأمانة الأمور المعنوية، والتكاليف الدينية والدنيوية، فالمحافظة على الحق أمانة، وأداء الواجب أمانة، والقيام بالعمل أمانة.

والأمانة لها معنى عام وشامل وشائع بين الناس، ولها معان كثيرة، وصور عديدة، يغفل عنها كثير من الناس، ويفرط بها بعضهم، ويتساهل بعضهم الآخر فيها.

فالمعنى العام للأمانة هي الأمانة المالية، وهي أول ما تتبادر إلى الذهن، إذا كانت للغير، وتسمى الودائع التي يضعها شخص عند آخر للثقة المتبادلة، وهذه الأمانة يجب حفظها لصاحبها، وأداؤها عند الطلب، وعدم التهاون بها، أو التفريط في شأنها، وإلا كان التقصير والتفريط والتهاون خيانة، وعاملاً على فقدان الثقة، وفساد الضمير.

وأخبر رسول الله ﷺ عن ضياع الأمانة وخطر ذلك، وحذّر منه، وبيّن مصير الخائن في أمانته، وجزاء المستحل لوديعة غيره، فقال عليه الصلاة والسلام: «يُؤتى بالعبد يوم القيامة، فيُقالُ له: أدِ أمانتَك، فيقول: أيْ رب، كيف؟ وقد ذهبت الدنيا!؟ فيُقال: انطلقوا به إلى الهاوية، وتُمثل له أمانته كهيأتها يومَ دُفعت إليه، فيهوي في أثرها (أي يسرع في وضع يده عليها) حتى

يدركها، فيحملها على منكبه، حتى إذا ظن أنه خارجٌ، زلّت عن منكبه، فيهوي في أثرها».

ولا تقتصر الأمانة المالية على الودائع والأموال التي يضعها الناس عندك، **بل المال كله الذي بيدك وضعه الله أمانة عندك**، لتستعمله في مرضاة الله، وفيما شرع الله، وأول ما يحاسب عليه الإنسان -يوم القيامة- وحتى في الدنيا- ماله، من أين اكتسبه، وأين أنفقه، وماذا عمل به؟، لأن المال زهرة الحياة الدنيا كما جاء في كتاب الله عز وجل، ولكنه فتنة ومتزلق تهوي به الأقدام، وتطيش له الألباب، ويفقد فيه الصواب، وتطمع به النفوس، فلا تتحرى من حلال أو من حرام، ومن كسب طيب، أو ظلم واغتصاب، فيجب ألا يفتن المرء بزهرة الحياة، ويخون الأمانة الموكل بها.

وأداء الفرائض والواجبات والتكاليف أمانة، وهي المراد من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فرسالة الله للأرض أمانة عند الإنسان، وخلافة الإنسان في الأرض أمانة، والإنسان قد يكون ظلوماً لنفسه عندما يعصي ربه، ولم يقم بما افترض عليه، وجهولاً بعاقبة تفريطه، وما يلحقه من العقاب لإخلاله بما التزمه ديناً، وائتمنه عليه.

فالصلاة مثلاً أمانة لتؤديها كما طلبها الله تعالى، وكما أداها رسول الله ﷺ وقال: «صلُّوا كما رأيتموني أُصلي» فإن فعل المصلي ذلك قبلت منه، وحصل على الأجر والثواب، وأدى الأمانة، وإلا تُلفَّ ويضرب بها وجهه، وتدعو عليه بالضياع كما ضيعها، وخان الأمانة فيها، وكذلك **الزكاة أمانة، والصيام أمانة، والحج أمانة، والعلم أمانة**، وكل الفرائض والتكاليف أمانة

يجب حفظها أولاً، وأداؤها على الوجه الذي يرضي الله، ثانياً.

والجوارح والأعضاء والحواس التي ركبها الله تعالى في العبد، وجعلها طيّعة له تُؤمر، وتأتمر، بأمره، وتحرك بإرادته، وتوجه باختياره، فهي أمانة يجب أن يستعملها في طاعة الله، ويسخرها في مرضاته، فإن استعملها في معصية الله، ووضعها في غضب الله فقد خان الأمانة، فالعين أمانة، والبصر أمانة، والسمع أمانة، والفرج أمانة، والقلب والفكر أمانة، والرِجْل أمانة، واليد أمانة، واللسان أمانة، والعاقل من يحفظ هذه الأمانات، ويستخدمها في رضا الله، وفيما وجدت له، ويبعدها عن الأذى والظلم والفواحش، ويكفها عن المعاصي والمحرمات، وإلا كانت وبالاً على صاحبها، وشاهداً عليه يوم القيامة وهذا ما نطق به القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤-٢٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وفي ذلك اليوم تتبرأ الأعضاء والحواس من صاحبها، وتجأر إلى الله بالدعاء والشكوى بأن صاحبها لم يحفظها، و لم يستعملها فيما ينفع ويجب، وأنه ضيعها وخان الأمانة فيها.

قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «حق تقاته: أن يجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأبناهم» وهكذا تستخدم الجوارح والأعضاء كما يريد الله تعالى في نفع صاحبها ونفع عباد الله تعالى، وتؤدى فيها الأمانة.

والمجالس بين الناس أمانة، ومن الأمانة كتم أحاديث المجالس، ومن الخيانة نقل ما يجري فيها من أقوال ومشاورات للأخبار، وإذاعة للأسرار، إلا ما كان فيه ضرر وخطر، قال رسول الله ﷺ: «المجلس بالأمانة» أي لا يحل إفشاء سره «إلا مجلس سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق»، وكم قطعت الأرحام، وهدمت الأعمال، وفسدت العلاقات بسبب ضياع أمانة المجالس، ونشر ما وقع فيها، وقد ائتمن الجالسون بعضهم بعضاً، وخصوا أنفسهم باللقاء والاجتماع والتدوال، ثم يشيع الأمر ويفشو وينتشر خيانة للأمانة.

والأسرار أمانة عندك يودعها صاحبها لديك، ويهمس بها في أذنك ثقة فيك، واطمئناناً لأمانتك، ومن الخيانة إفشاء سر من ائتمنك، وقطع العلاقة معه، وإلحاق الضرر والأذى به.

وفي مقدمة الأسرار ما يجري في البيوت، وخاصة ما بين المرء وزوجه، مما يفضي به أحدهما إلى الآخر، ثم يخون صاحبه بإفشاء سره، وهذا ما حذر منه رسول الله ﷺ، ونبه إلى خطره، فقال عليه الصلاة والسلام: «من أعظمِ الأمانةَ عندَ اللهِ يومَ القيامة الرجلُ يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشرُ سرها».

والمناصب والسلطة أمانة، فلا يجوز للمسؤول استغلال السلطة والنفوذ في جر المغانم لنفسه ولذويه ولمعارفه وأصدقائه على حساب صاحب المصلحة الحقيقية وبقية أفراد الشعب والأمة، ولا يجوز له استغلال النفوذ والسلطة لتناول الرشاوى والهدايا، وهي رشاوى في حقيقتها، وإن تأولها صاحبها بتأويلات باطلة، ومسوغات فاسدة، والمعيار في ذلك قول الصادق المصدوق ﷺ: «أفلا جَلَسَ في بيتِ أبيه وأمِهِ فينظرُ أيُهْدي إليه»؟

وأن الخيانة في المناصب والسلطة، وأخذ الرشاوى لها أشد العواقب، لقوله ﷺ: «من استعملناهُ على عملٍ، فرزقناهُ رزقاً، فما أخذهُ بعدَ ذلك فهو غُلُول» أي خيانة، لها عقاب شديد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

والعمل الذي يكلف به الإنسان أمانة من الله، وعند رب العمل وصاحب الوظيفة وصاحب المهنة، فلا يصح أن يتشاغل العامل والموظف عن عمله، أو يتغافل عن أدائه، أو يقصر في تنفيذه، أو يتنكر لأصحاب الشأن والمصلحة والمواطنين، أو يتبرم بهم، أو يقوم بالعمل مبتوراً وناقصاً، أو يماطل في القيام به، ويؤجل، ويسوف، ويتهرب.

فالمريض أمانة في يد الطبيب والممرض، **والمخطط والبناء** أمانة في يد المهندس والمراقب الفني، **والطالب** أمانة في يد المعلم والمدير، **والطفل** أمانة في يد المربية، **والصنعة** أمانة في يد العامل ورب العمل، **والوظيفة** أمانة في يد الموظف، **والأولاد** أمانة عند الأبوين للتربية والرعاية والحفظ والتنشئة والتوجيه الصالح الصحيح.

وأعظم الأمانات هي الرسالة السماوية التي أنزلها الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ بالأداء والتبليغ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقام رسول الله ﷺ بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، ثم كلّف صحابته أولاً، والأمة العربية ثانياً، والأمة الإسلامية عامة بحمل هذه الرسالة، وأداء الأمانة، وقام الصحابة –رضوان الله عليهم– بهذه المهمة الجسيمة، وحمل الأمانة، وتتابع السلف الصالح والأجيال الإسلامية على هذا المنهج القديم، وحملوا

الأمانة للعالم أجمع، ونشروا النور والهدى بأعمالهم وأقوالهم في الخافقين، حتى وصلتنا بيضاء نقية، ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك، واليوم أصبح الإسلام أمانة في أعناقنا، بحمله، وتطبيقه بشكل صحيح، وحسن تنفيذه، وإلا خنّا الأمانة، وقصرنا في الوظيفة، وإن كان ذلك، فلم ولن يؤثر على بقاء الإسلام الذي تكفل الله بحفظه، وأعلن ميثاقه الأزلي بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وهو ما حصل طوال التاريخ الإسلامي المجيد، وإنّ هذه الأمانة في حمل الرسالة وتبليغها لا يقتصر على العلماء والمختصين بالشريعة فحسب، بل تشمل كل مسلم، ولو في حسن التطبيق والتنفيذ ليكون داعية وأسوة بفعاله وسلوكه ومعاملاته حتى في بيته، وأمام أهله وأولاده، وبين جيرانه، ومن يختلط بهم، ويتعامل معهم.

إن الأمانة مسؤولية جسيمة، وقضية عظيمة، أناط الله تعالى بالإنسان حملها، ليكون في مصاف العليين والملائكة المقربين، وإلا هوى إلى الجحيم، ولذلك أرشد القرآن الكريم إلى ذلك، وأمر بأداء الأمانة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، قال القرطبي رحمه الله: «هذه الآية من أمهات الأحكام، تضمنت جميع الدين والشرع...، والأظهر أنها عامة في جميع الناس، فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، وردّ الظلامات، والعدل في الحكومات...، وتتناول من دونهم في حفظ الودائع، والتحرز في الشهادات وغير ذلك».

وهذا أمر يفيد الوجوب بطلب الفعل الجازم، الذي يثاب فاعله، ويعاقب تاركه، وإن الله تعالى يأمر المؤمنين أن يوصلوا جميع ما ائتمنوا عليه

من الله تعالى، أو من الناس إلى أهله بالعدل.

ثم حذّر القرآن الكريم من **خيانة الأمانة**، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقد ربط الله تعالى بين خيانة الله، وخيانة الرسول، مع خيانة الأمانة، وابتدأ الآية محبباً ومرغباً بلفظ الإيمان وللمؤمنين، مما يؤكد الترابط المتين بين الإيمان والأخلاق والعبادة.

بل إن **الأمانة هي ركن الإيمان**، لما ثبت في الحديث الصحيح عن أنس ابن مالك -رضي الله عنه- قال: «ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: **لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**» (أخرجه ابن حبان في صحيحه، والإمام أحمد ٣/١٣٥، ١٥٤).

ووصف القرآن الكريم المؤمنين بصفة الأمانة، وحفظها ورعايتها، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨]، [المعارج: ٣٢].

وكان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الأمانة، حتى قبل البعثة النبوية، وكان يسمى ويعرف في قومه بالأمين، واستمرت صفة الأمانة فيه بعد البعثة، بل تأكدت، وزادت، وكانت أهم صفات الأنبياء عامة، هي الأمانة، لذلك وصف الله سبحانه وتعالى نبيه الكليم موسى بذلك، فقال تعالى عنه: ﴿ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال الله تعالى على لسان موسى: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ [الدخان: ١٨]، كما جاءت نفس الآية الكريمة في وصف الأنبياء والمرسلين، فقال تعالى على لسان نوح: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وقال تعالى على لسان هود: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ

أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٢٥]، وقال تعالى على لسان صالح: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٤٣]، وقال تعالى على لسان لوط مخاطباً قومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٦٢]، وقال تعالى على لسان شعيب منبهاً لقومه، ومذكراً بصفته: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٧٨].

وإذا **انتشرت الأمانة بمعناها العام** والشامل في قوم أو مجتمع كان مجتمعاً فاضلاً، ويرجى منه الخير، وتسوده الفضيلة، وحسن العمل والإنتاج والعطاء والصنعة، والثقة في التعامل، والسعادة والراحة، والمحبة والطمأنينة.

وتنطبق هذه الصفات على الفرد إذا اتسم بالأمانة، وتجنب الخيانة، وكان محل ثقة من الجميع، ويحقق بناء لبنة صالحة في الحياة.

وإذا **فقدت الأمانة**، وانتشرت الخيانة، والعياذ بالله، تعرض المجتمع والأمة للدمار والخراب، والتشتت والضياع، والفرقة والانحلال، والتمزق والتأخر، والانحطاط، وصار قابلاً للاستعمار والاستبداد، ولقمة سائغة في يد الآخرين.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الاستقامة، والالتزام بالأمانة، والاقتداء بالحبيب المصطفى وبالأنبياء والصحب والسلف الصالحين، لنكون خير أمة أخرجت للناس، وخير خلف لخير سلف، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: احترام الخصوصية من الركائز الأساسية

إن كل إنسان فرد مستقل بذاته في المجتمع، ويشارك الناس في حياتهم في أمور كثيرة، ولكن تبقى لكل إنسان خصوصيات تتعلق بنفسه وحياته، وبأسرته، وأقاربه، وفي بعض جوانب أعماله، ويحرص كل شخص على الحفاظ على هذه الخصوصيات، ويكتمها عن غيره، ويحيط بها سوراً من التصرفات حتى لا تبدو لغيره، ولا يطلع عليها سواه.

ولكن الإنسان مدني بطبعه، فهو يعيش في مجتمع، وتتفاوت الصلات بينهم، فيقترب بعضهم، ويبتعد سواهم، وقد يصطفى الشخص بعض الأحبة والزملاء والأقارب، ويدنيهم، ويطلعهم على بعض خصوصياته، ويكشف لهم بعض أسراره، لتكون أمانة عندهم، لثقته بهم، وانتقائهم عن غيرهم.

كما أن وسائل الاتصال الحديثة، والإعلام المتطور، قد يتيح للآخرين أن يطلعوا على بعض الخصوصيات، لتكون أمانة عندهم.

ويوجب الشرع والعقل، والدين والأخلاق، احترام هذه الخصوصيات، لأنها أمانة أولاً، ومن الركائز الأساسية في الحياة والمجتمع، وإلا تسرب الفساد والانحلال والشر، كما هو ظاهر اليوم.

وإن هذه الظاهرة أدت بالعبث وإثارة التشويش وسوء الأدب والأخلاق، مع استخدام الوسائل التكنولوجية بطريق الشر والفساد.

وإن الاستفادة المادية من وراء هذا العمل تدخل في إطار تحصيل المال الحرام، والباطل، لأنه سوء، وشر، وإضرار، وخاصة من الأطفال والأجيال الصاعدة، مما يؤدي بالأمة إلى الفساد والرذيلة، وتضعف هيبتها ومكانتها.

ولذلك يجب ضرورة التشديد في تطبيق القوانين والأنظمة المطبقة والمعمول بها، والتي تنص صراحة على مراعاة الخصوصيات، واحترامها، بما يتفق مع النظام العام، والآداب، مع ضرورة إصدار الأنظمة والقوانين لوضع حد لانتشار وشيوع هذه الظاهرة، فضلاً عن وجوب التوعية من خلال أجهزة الإعلام المختلفة، ونتمنى أن يوفق العاملون في تطوير الأجهزة الحديثة على اختراع الأنظمة التي تكفل حفظ الخصوصيات، ووضع الحواجز لنقلها، دون علم صاحبها إلى غيره، أو تسربها إلى أجهزة أخرى، وهنا تلتقي العقيدة والأخلاق والعلم والأنظمة لحماية أفراد المجتمع، والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: مرض الظلم

ظاهرة اجتماعية في الحياة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعاملين.

يفشو الظلم في الحياة اليوم حتى أصبح ظاهرة اجتماعية، ومصيبة دولية، ومرضاً خطيراً يجب تشخيصه ومعالجته من الناحية الدينية.

وقد يعجب الإنسان أن يتحدث الفقيه العالم عن المرض، ويظنه أنه من اختصاص الأطباء، ولكن الأمراض متنوعة، وكل نوع يختص به صنف من الناس، وبعض الأمراض من اختصاص الأنبياء والرسل والدعاة والخطباء والعلماء، وهو مرض الظلم الذي هو ظلمات.

◈ مرض الظلم وخطره:

إنه مرض يسري في دماء الناس، وفي عروق البشر جميعاً، وهو مرض يتعلق بكل إنسان، لذلك كان مرضاً خطيراً فتاكاً.

ولكن يصبح أخطر إذا فشا في المجتمع، وصار ظاهرة اجتماعية، ويصبح أخطر وأخطر عندما يصيب الجهاز الرسمي المكلف في الأمة والدولة بمنع المرض ومقاومته، فيقع فيه ويمارسه، ثم يصبح أخطر من ذلك عندما يعتري الدول العظمى، وتتبناه ويصبح لها ديدنا ومنهجاً وسياسة، وتمارسه عملياً ليصبح دولياً، ويصبح من أخطر الأمراض عندما يصبح عالمياً في أجهزة الأمم المتحدة، ومؤسساتها، وفي محكمة العدل الدولية، وفي مجلس الأمن، وينخر هذا المرض في عباب المنظمات الدولية.

◈ الظلم فطرة في الإنسان:

إن الإنسان ظالم بفطرته وجبلته، ظالم لنفسه أولاً، وظالم لربه ثانياً، وظالم لأخيه الإنسان ثالثاً، فإنه ظالم لزوجه، وظالم لشقيقه، وظالم لابنه، وظالم لأبويه، وظالم لابن عمه، وظالم لقرابته، وظالم لأسرته، وظالم لشريكه، وظالم لمن يتعامل معه في مختلف أنواع المعاملات المالية والشخصية والأدبية والمعنوية، حتى قال الشاعر مصوراً ذلك:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة (عن الظلم) فلعلة لا يظلم

ويقول الخطيب الشربيني الشافعي رحمه الله تعالى : «إن طباع البشر مجبولة على التظالم، ومنع الحقوق، وقلَّ من ينصف نفسه»[1].

◈ الحاجة لتوجيه الفطرة والغزيرة:

وبما أن الظلم طبيعة في الإنسان وفطرة فهو يحتاج للدعوة والتذكير، والنصح والتربية، والتخويف والتخدير، وهذا أحد الأهداف الكبرى لبعثة الرسل وإنزال الكتب لمنع الظلم وإقامة العدل، وتربية الإنسان، ولو بالقوة والجبر والجدية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، والآيات في إقامة العدل والقسط لمنع الظلم كثيرة وكثيرة.

◈ ظلم الإنسان لنفسه:

والإنسان يبدأ بظلم نفسه في انحرافها عن منهج الله، وفي استعمال

---

(١) مغني المحتاج ٤/٢٧٢.

حواسه ونعمه فيما يغضب الله، وفيما يضر الإنسان نفسه، فيرديها في الهلاك، ويتنكب عن صراط الله، ولذلك جاء في الدعاء المأثور «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً شديداً، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

يظلم الإنسان جسمه وأعضاءه ويؤدي بها إلى الدمار، وتشتكي لربها وخالقها، وتجرأ إليه بالاستغاثة والشكوى مما يستعملها صاحبها، فإن لم يقف ويرتدع، فإنها تشهد عليه يوم القيامة، قال تعالى مصوراً حال الظالمين لأنفسهم، ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٣٦]، ويستغرب صاحب الأعضاء ويستنكر هذه الشهادة، فيقول لها: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ «فيأتي جوابها» ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

وعرض القرآن الكريم في آيات كثيرة ظلم الإنسان لنفسه، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].

ويصل ظلم الإنسان لنفسه أكبر الكبائر على الإطلاق وهو أن يظلم ربه الخالق البارئ الواحد الواحد، فينكر ألوهيته، أو ربوبيته، أو وحدانيته، أو وجوده، ويجعل له ولداً، ويصفه بالصفات الشنيعة التي لا يرضاها الإنسان لنفسه، وأنه فقير، أو اتخذ الملائكة أولاداً، أو بسوء الخلق، أو عدم العدل.

◈ ظلم الإنسان لمن حوله:

الإنسان لا يقتصر على أن يظلم نفسه، بل يمتد ظلمه ليشمل من حوله، فتشكو الزوجة من ظلم زوجها، ويشكو الزوج من ظلم زوجته، ويشكو الأولاد من ظلم أبيهم، ويشكو الأبوان من ظلم أولادهم، ويشكو الأخ من ظلم شقيقه في الميراث والقسمة، ويشكو الإنسان من أخيه الإنسان في المعاملات المالية والمعنوية، في البيع، والتجارة، والشركة، والقروض والوفاء والوعود والغيبة والنميمة والحسد والكيد والتآمر..، ويشكو المواطن من الموظف، والموظف من المواطن في أداء الأعمال وتصريف شؤون الحياة، ويشكو العامل من رب العمل، ويشكو أصحاب الأعمال من العمال[1].

◈ ظلم القضاة:

وتتسع دائرة الظلم عندما يصدر من القضاة الذين كلفوا بإقامة العدل ومنع الظلم، ورد المظالم، وحجز المظلمات، فينحرفون عن واجبهم، ويصدر

---

(١) قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: (قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة، الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وبقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومٗا﴾ والثالث: ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٞ لِّنَفْسِهِۦ﴾، وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس فإن الإنسان أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه فإذا الظالم أبداً مبتدئ في الظلم، ولهذا قال تعالى في غير موضع: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ المفردات في غريب القرآن ص٣١٥ باختصار.

منهم الظلم، ويمارسونه في أحكامهم، ويظلمون النـــاس، ويبرئـــون الظـــالم والمعتدي، ويعاقبون البرئ والمظلوم، ويصدرون أحكاماً قضائية جائرة، وهم أرباب العدالة وحماتها، ويصبح حاميها حراميها، ويفتحون أبواب الظلم أمام الناس للتظالم فيما بينهم.

إذا كان رب البيت بالطبل ضـــارباً

فشيمة أهل البيـــت كلـــهم الزمـــر

ويسود الظلم من سائر الموظفين على الرعية في المعاملات والقـــوانين الجائرة والرشاوي المتفشية، والإهمال في العمل، وتـــضييع أوقـــات النـــاس وأموالهم ، وهم **في أمان من** ملاحقة القانون والقضاة الذين يؤمنـــون لهـــم الغطاء المبرقع المسموم.

◈ ظلم الدول العظمى:

واليوم صار الظلم أوسع وأوسع، وامتدّ لظاه، وتجسدت صوره، وتوسع مداه في الدول العظمى، والاستكبار العالمي للدولة الوحيدة في العالم، فتتحكم في رقاب الدول الضعيفة، وتذيقها الذل والخسف والهوان، وتمتص خيراتهـــا، وتستولي على مقدراتها، وتسيِّر جنودها للاحتلال، وتسلط عملاءهـــا علـــى القتل والإبادة وسفك الدماء وانتهاك الأعراض، وتعذيب السجناء، والتنكيل بالأسرى، وتشريد المواطنين من الأطفال والشيوخ والنساء.

◈ الظلم العالمي:

وفق كل ذلك تُسخَّر الأمم المتحدة لتغطية ظلـــم الـــدول الكـــبرى، أصحاب حق النقض (الفيتو) ومن يسير في ركابها من الـــدول المستـــضعفة، والهياكل الكرتونية، لاستصدار القرارات الدولية إما لتأييد الظالم، لاحـــتلال

البلاد وإسقاط الدول، إما بمجرد السكوت والعجز، وإما بالتحدي عن طريق اتخاذ القرار الانفرادي، أو منع الشجب والأخذ على يدي المعتدي بما يسمى حق النقض (الفيتو) الذي يتنافى مع حقوق الإنسان في المساواة بين الدول والأعضاء، ويسود الظلم العالمي، وتتحكم دولة جائرة ظالمة في العالم، وتفرض ما يدعى ويسمى بالنظام العالمي الجديد، وتعبث بالمؤسسات الدولية، والاتفاقات العالمية، كمنظمة الجات، واتفاقية التجارة العالمية، للهيمنة على مقدرات الشعوب، واستتراف خيرات الأمم.

◈ تشخيص الداء، ومعرفة الدواء:

إن هذا المرض الفتاك للظلم يستشري بيننا، وحولنا، ويفتك بالإنسان، والعالم، وتتأوّه منه البشرية، وتصلى بلظاه الإنسانية، وتلهج به الألسنة، وتكثر عنه الأحاديث، ويشيع بين الناس، وتضج منه الشكاوى، وترتفع حيثما اتجهت، وكلما دار الحديث، وتبادلت الآراء، ويعرفه الجماهير بشكل كامل.

إنه مرض العصر ويتمثل في الظاهرة الاجتماعية والدولية والعالمية للمرض، ويسهل على معظم الناس تشخيصه، وتدركه المؤسسات والدول.

إن هذا المرض يعرف الكثيرون دواءه وعلاجه، ويلمسون أثره ونتائجه، ويتمنون التخلص منه، ويأملون بمحاصرته والتضييق عليه، ويحلمون بزواله والقضاء عليه، ولكن ما العمل؟

والجواب أن الجميع يجهلون ، أو يتجاهلون، المنهج القويم لممارسة الدواء، واستئصال الداء، إنه المنهج الرباني الإلهي الغائب أو المغيّب، إنه شريعة الله تعالى، إنه عدالة السماء التي نتجنبها، ونتجاهلها، وننساها ونتناساها، فنبقى في الحضيض، وميمعة الوباء ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

◈ التحذير من الظلم وعقابه:

وأداء للنصيحة، وقياماً بالواجب، وتذكيراً بالحق، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فإننا نتلو بعض الآيات الكريمة، ونروي بعض الأحاديث الشريفة التي وردت أولاً في التحذير من الظلم، ثم نروي بعض ما ورد عن عاقبة الظالمين، لعل في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أولاً: التحذير من الظلم:

وردت نصوص شرعية كثيرة، وقطعية الدلالة، في القرآن والسنة للتحذير من الظلم، لتجنب الوقوع فيه، والسعي للابتعاد عنه، وذلك في صيغ متعددة ، وأساليب مختلفة، وبيان دقيق ، فمن ذلك(١):

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، فإن الله إذا لم يسرع بمعاقبة الظالم فلا يغتر بذلك، فالله يمهل ولا يهمل ، وإن لم يعاقب في الدنيا فالعقاب أشد في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وهذا تنبيه إلى أن الظلم لا يغني، ولا يجدي، ولا

(١) تكررت كلمة الظلم باللفظ الصريح ٢٩٥ مرة في القرآن الكريم بالإضافة إلى المعاني المأخوذة من الألفاظ المقابلة للظلم، ومن الألفاظ التي تدل بالمعنى على الظلم.

يخلّص، بل يردي.

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، سواء في الدنيا أم في الآخرة، والأمثلة من الحياة كثيرة، على المستوى المحلي والدولي.

وأوجب الشرع عدم قبول الظلم أو الرضا به، أو الاستسلام له، وإلا كان ذلك تقصيراً وجريمة وموجباً لاستحقاق العقاب، وشمول المؤاخذة الإلهية للظالمين ومن ركن إليهم أو قبل عملهم، أو رضي به، أو استسلم له.

قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، فيجوز النيل من الظالم، والشكوى منه، ورفع أمره للسلطة لوضع حد لظلمه، وحتى يجوز شتمه وغيبته وفضح أعماله، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «لَيُّ الواجدِ ظلمٍ، يُحلُّ عرضه وعقوبته».

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، وهذه دعوة صريحة لمقاومة الظالم، وإلا استحق المظلوم المستسلم المتخاذل النار، فإن لم يستطيع وجبت عليه الهجرة وترك الوطن ليستعد للمقاومة، ويكون له الأجر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١]، ولا يقبل الله تعالى الاستسلام للذل والهوان بحجة الضعف بل وصفهم القرآن بالظلم لأنفسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وكان الظلم أحد الأسباب الرئيسة لمشروعية الجهاد والقتال في الإسلام، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وفي السنة النبوية وردت أحاديث كثيرة تحذر من الظلم والوقوع فيه، منها:

عن أبي ذر جندب بن جنادة ﷺ عن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظّالموا» أي فلا يظلم بعضكم بعضاً[1].

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[2].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»[3].

وعن معاذ ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقال: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله..» ثم أوصاه وقال له: «واتقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[4].

---

(١) هذا جزء من حديث رواه مسلم، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث» لأنه رواه أبو إدريس الخَوْلاني الدمشقي عن أبي ذر ﷺ (رياض الصالحين ص ٧٠).

(٢) هذا جزء من حديث رواه مسلم (رياض الصالحين ص ١١٤).

(٣) هذا حديث صحيح متفق عليه (رياض الصالحين ص ١١٦).

(٤) هذا جزء من حديث عظيم، ومتفق عليه عند البخاري ومسلم (رياض الصالحين ص ١١٦).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من كانت له مظلمة لأخيه: من عرضه أو من أي شيء فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[1].

ثانياً: عاقبة الظلم:

وتكملة للتحذير من مقارنة الظلم والوقوع فيه، وتخويفاً من عاقبته الوخيمة، وترهيباً من اقترافه، فقد وردت آيات كثيرة تبين عاقبة الظالمين، وجزاءهم المحتوم، ومصيرهم الأسود، لعل ذلك يحرك في نفوسهم رادعاً ذاتياً داخلياً للتوقف والندم والتوبة، لتخف وطأته، ويقل رواده.

وجاءت الآيات التي تبين عاقبة الظالمين بأساليب متنوعة، وصور بيانية مختلفة، وأنماط متعددة، تمشياً مع الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن الكريم، فمن ذلك:

١- الذم والحسرة على الظالمين:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]، لبيان الهول الشديد الذي يواجه الظالم، وأنه يتمنى لو يملك ما في الأرض جميعاً ليفتدي نفسه من ذلك، ولكن هيهات هيهات.

وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٥٩]، فإن الله تعالى يعاقب الظالمين في الدنيا بطاعون سماوي يجتث وجودهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ

---

(١) هذا حديث صحيح رواه البخاري (رياض الصالحين ص ١١٧).

﴿ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالقوة المطلقة لله تعالى الذي يذيق الظالمين أشد العذاب.

٢- الظلم سبب لهلاك الأمم:

لقد أرسل الله رسله، وأنزل عليه الكتب والبينات، فقام الرسل بالتبليغ والبيان، فأعرضت أممهم، ونالوا في الرسل، وكذبوهم، وتحدُوهم، واعتدوا عليهم، فكانت العقوبة الإلهية تنزل عليهم بسبب ظلمهم فتدمرهم تدميراً، وتتركهم أثراً بعد عين، بالإبادة، والاستئصال، وهي سنة الله تعالى مع الظالمين من الأمم السابقة، واستثنى الله تعالى أمة محمد من ذلك.

قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، فأهلك الله الظالمين على آخرهم.

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فكان عقابة الظالمين عذاباً شديداً.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣]، فالله تعالى أهلك الأمم الماضية بسبب ظلمهم لأنفسهم، وأكد ذلك القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، فهلاك القرى بسبب ظلمهم، وفي وقت محدد بدون تأخير، ثم أكد ذلك بعدم قبول الشفاعة فيهم فقال تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] فلا يقبل الله تعالى تأجيل إغراق قوم نوح لظلمهم، وأن الظالمين سيعلمون أن مرجعهم بعد الموت إلى جهنم والعياذ بالله، فقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ

يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وتصبح بيوت الظالمين خاوية على عروشها بقدرة الله تعالى على تدميرها، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢] والباء سببية، أي أصبحت بيوتهم خربة خاوية بسبب ظلمهم، وتأكد ذلك في آية أخرى من نفس السورة، فقال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

ولذلك يعجل الله تعالى عقوبة الظالمين في الدنيا، وهو ما بيّنه رسول الله ﷺ في عدة أحاديث.

قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة لا تردّ دعوتهم..، ومنها دعوة المظلوم»[1].

وقال أيضاً في حديث معاذ السابق: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبينه حجاب»[2].

٣- عموم الهلاك بسبب الظلم:

يقال: الرحمة تخص، والبلاء يعم، وهذا ينطبق على جريمة الظلم، وأن بلاءها يعم، ولا يقتصر على الظالمين، بل يصيب من شاركهم، وأقرهم، وسكت عنهم، ووافقهم على فعلتهم الشنيعة، لأن الظلم بحد ذاته جريمة متعدية، وليست قاصرة على فاعلها لعدم إنكارها والأخذ على يد فاعلها، فيعم البلاء.

---

(١) ونصه: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، والمظلوم» رواه الترمذي وقال: حديث حسن (٢٢٩/٧ رقم ٢٦٤٦) وابن ماجه (٥٥٧/١ رقم ١٧٥٢) وأحمد ٣٠٥/٢.

(٢) حديث متفق عليه (رياض الصالحين ص ١١٦).

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فالعقاب بسبب الظلم يعم الظالمين وغيرهم، وينحصر اتقاؤه بالإنكار، ومقاومة الظالمين، والوقوف في وجههم حتى لو وصل ذلك إلى القتل، فيكون المقتول شهيداً، كما بينه رسول الله ﷺ فقال: «أفضل الشهداء حمزة، ثم رجل وقف أمام سلطان ظالم جائر، فأنكر عليه، فقتله».

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، فمجرد الركون للظالمين، والميل إليهم بمودة أو رضا، سبب لإصابة أهله للعقاب والدمار.

وقال تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، فقد أهلك الله الأمم السابقة، وجعل بيوتهم وأراضيهم مثلاً للاعتبار، وذكرى للعقلاء الذين أتوا بعدهم، فلم يعتبروا بمن سلفهم، ولم يمتنعوا عن الظلم، فاستحقوا أن ينالوا مصيرهم.

٤- العقاب الأليم يوم القيامة للظالمين:

إن عقاب الظالمين مزدوج في الدنيا والآخرة، أو أنه متنوع في الدنيا، أو في الأخرى، وعقوبة الآخرة أشد وأخزى، وأنكى وأبلغ، ومنها عقوبة الظلمة.

وإن كثيراً من الظالمين لا ينالهم الجزاء العادل في الدنيا، وقد يتهربون من وجه العدالة، وقد يعجز القضاء والإثبات عن مؤاخذتهم، وقد يكون الحكم القضائي أقل درجة مما يستحقه الظالم، فينجو كثير وكثير من الظالمين من

العدالة والجزاء والعقاب الدنيوي.

ولذلك وصل فريق من العلماء -عقلاً- إلى إثبات وجود يوم القيامة والبعث والحساب لما شاهدوه من الظلم البشري الطاغي المستشري في الدنيا دون أن ينال الظالم جزاءٌ أو عقوبة، فلا بدَّ من يوم للعدالة ولمقابلة الظالمين والقصاص منهم، ليتحقق العدل بين الناس.

ولذلك يقف الخلق أمام محكمة رب العالمين لرد الحقوق إلى أصحابها من الظالمين المعتدين حتى بين الحيوانات، لما روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدّونَ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقادّ للشاة الجَلحاء (التي لا قرن لها، أو كسر قرنها) من الشاة القرناء»[1] التي نطحتها وكسرت له قرونها.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من ظَلَم قَيْد شبر من الأرض، طُوّقه من سبع أراضين»[2] أي يوم القيامة.

وورد في ذلك آيات كريمة كثيرة، منها:

قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]، وويل: واد في جهنم، أو دعاء بالثبور من الله تعالى للظالمين بالعذاب الأليم في اليوم العظيم.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢]، فذكر بأنه ظلموا ليدل على سبب استحقاقهم العذاب الخالد، لأن الحكم إذا عُلق بمشتق فإنه يدل على علّية الاشتقاق.

---

(١) هذا الحديث أخرجه مسلم (رياض الصالحين ص ١١٥).

(٢) هذا الحديث متفق عليه، أي أخرجه البخاري ومسلم (رياض ص ١١٥).

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا (نصيباً من العذاب يوم القيامة) مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ (الهالكين قبلهم) فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي فلا يستبطئوا العذاب إن أخر لهم إلى يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ (أي يوم القيامة وعند الحساب والسؤال) وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، فمن سجل في كتابه الذي يحمله ظلماً فقد خاب وخسر.

وبعد أن وعد الله وتوعد الظالمين بيّن صوراً من عقوبتهم وما يلاقونه يوم القيامة من الذل والهوان، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، ففقدوا العقل والوعي والقلب والعين لهول ما يرون مع شخوص البصر إلى السماء وإطراق الرأس والهرولة لملاقاة العذاب.

ويصف القرآن الكريم صورة أخرى للظالم يوم القيامة، فيقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، فيقضم يديه بأسنانه حسرةً على ظلمه.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فقوة العدل المطلق لله تعالى يراها الظالمون يوم القيامة بأم أعينهم لينالوا العذاب الشديد.

٥- العدالة الإلهية المطلقة لمعاقبة الظالمين:

إن هذا الجزاء الرهيب للظالم، والتحذير الشديد، والوعيد الخطير،

والعقاب الأليم في الدنيا والآخرة يتمثل بالعدالة الإلهية المطلقة على فعل آثم خطير، وبما ارتكبه الظالم من هضم الحقوق، وإنكار الحق، والاعتداء على حقوق الآخرين، ليتأكد القسطاس الكامل والعدل الشامل، ليطمئن الناس إلى جزاء أعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وهذا ما بينه القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، فالله حرّم الظلم على نفسه، وأقام العدل ليعاقب العباد على ما جنت أنفسهم وأيديهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فلا ظلم في محكمة رب العالمين ولو بمقدار ذرة أو هباء.

وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فأعمالهم مجسدة أمامهم، وكتابهم ينطق عليهم، ومعروض مكشوف حاضر.

وقال عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، سبحانه، سبحانه، ما أعدله، وما أدق الحساب عنده؟؟!

◈ خاتمة: عود على بدء، وربط بين المقدمة والنتيجة:

وأخيراً –وليس آخراً– قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال تعالى في نفس المعنى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، وأن يجنبنا مواطن الظلم والعدوان، وأن يرضينا بالحق، والوقوف عنده، وعدم تجاوزه، والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: مرض الوهن

تنتاب الأمة الإسلامية، أفراداً، وجماعات، ودولاً، أمراض خطيرة، ويكاد أن يكون بعضها قاتلاً، كمرض الظلم الاجتماعي السائد، ومرض الشكوى الذي يسود في جميع الأوساط وعلى مختلف المستويات، ومرض الوهن الذي تعاني منه الأمة في وجودها وكيانها.

والوهن -في اللغة العربية- الضعف، وقد يتبادر إلى الذهن أن المراد من مرض الوهن، الضعفُ الجسمي والجسدي، ولكن ليس هذا هو المراد، ولا المقصود، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: ((الوهن: ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق))[1] ومقصودنا هو النوع الثاني وهو **الضعف من حيث الخُلُق**، فليس المراد مرضاً مادياً، أو جسمياً، ليعالجه الأطباء، وليس المراد مرضاً نفسياً بالمفهوم الطبي ليعالجه الأطباء النفسيون، بل المراد **مرضاً معنوياً، خُلُقياً، دينياً**، إنه مرض قلبي وفكري وعقلي، يصيب الأفراد والمجتمع، ويصيب الدولة والأمة، إنه **مرض العصر الحاضر للمسلمين** الذي يحس به كل منهم وقد يشكو منه، ولكن في مجال التأوه والتألم، دون أن يدرك أبعاده وتشخيصه ودواءه.

هذا المرض شخصه رسول الله ﷺ قبل خمسة عشر قرناً، وهو يصور الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم، فكان ذلك إحدى معجزاته التي أطلعه الله عليها من علم الغيب، غيب المستقبل، وتقع هذه المعجزة اليوم ظاهرة للعيان كما وصفها عليه الصلاة والسلام.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٥٣٥ طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨١ هـ/١٩٦١م.

إنه مرض محسوس يدركه الكبير والصغير، ويشكو منه العقلاء والمفكرون وحتى عامة الناس أفراداً وجماعات، وينتشر على صعيد الأمة في ديار العرب والمسلمين وهذا مكمن الخطر وموطن التهديد، لأنه يمس الأمة الإسلامية اليوم من مشرقها إلى مغربها، شعوباً وحكومات، ولكن تخجل من التصريح به الدول والحكام، وتغض النظر عنه حياء وخجلاً، أو تعالياً واستكباراً، وكأنها لا تريد الاعتراف به، كالنعامة التي تضع رأسها في الرمل حتى لا يراها أحد، ومع ذلك نريد بيانه في ذاتنا، لأننا مطالبون به، لأنه وباء عام.

يقول الحبيب المصطفى النبي الموحى إليه -فيما رواه ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشك أن تَدَاعى عليكم الأممُ من كل أُفُق، كما تَدَاعى الأكلةُ إلى قصعتِها» قال: قلنا: يا رسولَ الله، أمِنْ قِلةٍ بنا يؤمئذ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونوا غثاء كغثاء السيل، يَنْتَزِعُ المهابةَ من قلوب عدوكم، ويَجْعل في قلوبكم الوَهْنَ» قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[1].

وقوله: «تداعى عليكم الأمم» أي تجتمع، ويدعو بعضها بعضاً، و«يوشك» أي يقرب ويدنو ويسرع، والوهن: الضعف، من وهن الإنسان يهن، ووهنه غيره وهناً، وأوهنه ووهّنه: أضعفه، و«القصعة» الصَحْفة، جمع

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد (٥/٢٧٨) ورواه أبو داود بلفظ قريب «يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ويترعن من صدور عدوكم المهابة منكم، ويقذفن في قلوبنكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت». سنن أبي داود ٤/١٨٤، مختصر مسند أبي داود ٦/١٦٥.

قَصَعات، وهي الإناء الذي يوضع فيه الطعام، أو الوعاء الكبير الذي يطبخ فيه.

◈ عناصر الوهن:

بيَّن الحديث الشريف جوانب الوهن المقصود وعناصره، وهي:

١- حب الدنيا في شهواتها ومالها وغرائزها.

٢- حب البقاء والخلود في الدنيا، وكراهية الموت، وكأن المسلمين يتشبهون بالدهريين الذين لا يؤمنون بالآخرة، وأن الدهر كل شيء عندهم، وقال الله تعالى عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويبين الرسول ﷺ حال المسلمين اليوم، أنهم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، وهو الزبد الذي يحمل السيل أي الماء الجارف، ويقذفه هنا وهناك، ويسير به نحو الأرض الهاوية، ولا يدري أين يذهب، مع كثرته، إن المسلمين اليوم مليار ونصف المليار مسلم، ولكن لا صوت لهم، ولا قيمة لوجودهم، ولا اعتبار لحالهم، ولا يؤبه بهم، حتى لا تحترم مشاعرهم، ولا تراعى حقوقهم، ولا يحسب لهم حساب، إنهم اثنتان وعشرون دولة عربية، أو قل: إنهم خمس وخمسون دولة، تسمى دعاية ونفاقاً دولاً إسلامية، ولا يوجد بينهم تعاون حقيقي، حتى ولا بين دولتين منهم، وكل دولة تظن نفسها أنها القطب الوحيد في العالم، أو تمثل نفسها بالنظام العالمي الجديد، وتتفاخر داخلياً على شعبها، وتحكي انتفاخاً صولة الأسد، وينطبق عليها قول الشاعر:

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة

بل وأسوأ ما تكون العلاقة حقيقة بين دول الجوار منها الممثلة بالجار ذي القربى والجار الجنب، ليقول المواطن العادي مردداً:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

هذا هو مرض الوهن، وهذه أوصافه، وهذا تشخيصه، إنه مرض في العقيدة والإيمان بالله تعالى.

وقد لا نرى له علاجاً جاهزاً، لأنه مرض نفسي ديني عقدي، ولا يمكن وصف الدواء، أو بيان الحل في هذه العجالة، والحديث السريع، لأنه يحتاج إلى دراسة وتحليل لطبيعة الأفراد، وأحوال المجتمع، وأعراض الأمة.

ولعل دواءه السريع يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وهذا يحتاج إلى وقت.

ولكن هل يكون **الدواء بحب الموت وكراهية الحياة**، كمفهوم عكسي ومخالف يؤخذ من الحديث؟ لعل الأمر يكون كذلك.

وهل يعني ذلك **أن المسلمين أمة للموت**، وأنه لا علاقة لها بالحياة، وعليها أن تتركها لغيرها؟ وتتجه إلى الانتحار الجماعي، أو الاستشهاد الحتمي لتقبل على الموت؟

إن ذلك يتنافى مع حقيقة الإسلام، ونظرته للكون والحياة والإنسان، فالله تعالى خلق الناس، ومنهم المسلمون حتماً، خلفاء في الأرض، ليعمروها، ويبنوها، ويزرعوها، وينتجوا فيها، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

والموت ليس مقصوداً لذاته ليكره المؤمن الحياة، بل إن الشرع نهى عن تمني الموت، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يتمنينّ أحدكم الموت لضرٍ أصابه، فإن كان لا بدَّ فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني مادامت الوفاة خيراً لي».

وإن طلب الموت لا يعني وقوعه، ولا ينقص من الأعمار شيئاً، فالأعمار بيد الله تعالى، وهي مقدرة على الناس، وهم أجنة في بطون أمهاتهم، قبل الولادة، وهذا جزء من الإيمان والعقيدة، بل إن حب الحياة وكراهية الموت يتنافى مع عقيدة التوكل على الله، والأجل المحتوم للإنسان.

وإن **حبَّ الاستشهاد والموت لا يزيد الموتى والقتلى**، ولا ينقص من العمر، فمن يقتل على سبيل المثال اليوم بالسيارات في أي بلد عربي أكثر ممن يقتل من المجاهدين في فلسطين أو العراق أو أفغانستان أو كشمير، أو الشيشان، ولكن هؤلاء المجاهدين، أو الاستشهاديين، أو ما يصفهم الأعداء بالانتحاريين أو بالإرهابيين، **يرهبون العدو، ويرهبون قادته وجنوده**، ويزلزلون الأرض من تحت أرجلهم، ويقوضون أركانهم، ولا يستشهد منهم إلا العدد القليل، ولكنهم نماذج رائعة، وأمثلة خالدة، تمنح الأمل للناس، وتؤكد فيهم العزة والكرامة والأمل في الحياة والمستقبل والاستقلال وكبح العدو وطرد قواته من الأرض الحبيبة، وتنزل الخوف والاضطراب في صفوف الأعداء.

إن الاستشهاديين والمجاهدين عدد قليل ولكن وراءهم أمة ومجتمع وجماهير تؤيدهم، وتقف خلفهم، وتمدهم معنوياً ومادياً، وتعوض شهداءهم بإنتاج الأولاد والشهداء، فإن قتل شهيد قام آخر، وولد ثالث، وبقيت الراية خفاقة مرفوعة، ويتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

نعم، **إن إرهاب العدو أمر مطلوب**، وقتاله واجب لطرده من الأرض المحتلة، وإجلاء جنوده ورجسه من البلاد، وليس إرهاباً للآمنين والمواطنين والأبرياء والأطفال والنساء.

إن الحكومات ودول العالم اليوم ينتابها الخوف والوجل والرعب والاضطراب من **أسلحة الدمار الشامل** من أعدائهم، ومن القنابل النووية في «ديمونة» وغيرها، أما أعداؤنا فينتابهم **الرعب والخوف من ولادات المسلمين في فلسطين مثلاً**، ويحسبون لذلك ألف حساب من إنتاج الأرحام التي تقذف الشهب الحارقة، والرجال والأبطال والقنابل البشرية، وتمد المقاومة بالشباب الأشاوس، وترفد المقاتلين بجيل قادم لاستمرار المقاومة والانتفاضة.

إن معظم المقاتلين والشهداء في فلسطين هم من جيل النكبة لعام ١٩٤٨، بل من جيل النكسة لعام ١٩٦٧م، من الجيل الذي ظهر بعد احتلال غزة والضفة الذي مضى عليه سبع وثلاثون سنة، بينما معظم الشهداء من سن العشرين والثلاثين الذين تربوا في أحضان الاحتلال، ولكنهم كانوا صاحين، وليسوا نائمين، أحياءً، وليسوا أمواتاً، أحراراً وليسوا عبيداً، يطلبون الموت فتوهب لهم الحياة.

وعندما سئل رئيس وزراء الكيان الصهيوني الجنرال رابين عن عجزه في وقف انتفاضة الشعب الفلسطيني المقهور المحتل قال: «هل نهددهم بالموت، وهم يطلبون الموت» ثم يطلبون الشهادة أو النصر، يضحون بدمائهم وأرواحهم في سبيل دينهم ووطنهم وأمتهم، إنهم ينوبون عن الأمة في حمل راية الجهاد والقتال ضدَّ أشرس عدو في العالم، ويدعمه أقوى دول العالم،

ويمدونه بالخبرات، ويزودونه بالمعلومات والأسلحة، ويتكفلون بتغطيته إعلامياً ودولياً، وفي المنظمات العالمية.

إن هذه الروح الإسلامية في حب الاستشهاد والموت في سبيل الله هي التي أرهبت الولايات المتحدة في لبنان عندما قام الأبطال بالعملية الاستشهادية ضد الماريتر في البارجة التي كانت ترسو على ساحل بيروت، والذين يعتبرون النخبة المميزة المفضلة المدللة في الجيش الأميركي الذي يظن أنه لن يقهر، فقتل منهم مائتان وسبعون جندياً وضابطاً، فأسرع الباقون إلى تضميد جراحهم في جنح الليل، ورحلوا -بدون رجعة- عن بيروت ولبنان، وهذا ما حدث تماماً مع الماريتر والجيش الأميركي في الصومال الفقيرة العزلاء إلا من الإيمان وحب الموت، فطردوا الجيش المحتل من بلادهم، وطهروها من أرجاسهم، ليقعوا تحت مكر وخديعة وتآمر الأميركان من وراء الحدود، وهذا ماحدث سابقاً في فيتنام التي قاومت أعتى أسلحة الولايات المتحدة، وتحدّت طائراتها الغاشمة، وتدميرها الشامل، حتى طردوهم شد طردة.

وهذا ما حدث تماماً في أفغانستان عندما أعلن الجهاد لأول مرة في التاريخ المعاصر، وفي القرن العشرين ضد أقوى دولة احتلت أرضهم من السوفيات، وطردوهم صاغرين أذلاء أمام التصميم على الشهادة أو النصر، فتحقق لهم الأمران.

وهذا ما نلمسه اليوم في العراق من الاستبسال والجهاد والمقاومة وحب الموت الذي أرغم الجيوش المحتلة على التفكير بالرحيل، واستبدال قوتهم الغاشمة بقوات رمزية من الأمم المتحدة، ومن مجموعة من العملاء الأنذال الذي تسيرهم أمريكا، وتخطط لهم، وتحرسهم، وتضمن سلامتهم، ولكن هيهات هيهات، والتاريخ سيعيد نفسه.

إن ذلك يتفق مع التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، الذي يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، ويتفق مع الأثر الإسلامي الخالد: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لأخراك كأنك تموت غداً، ويتفق مع التوجيه النبوي الشريف بالاستعداد للموت والعمل للآخرة دون ترك للدنيا، أو تخلٍ عنها، وهو ما ردّده جنود الإسلام الأشاوس في التاريخ بحب الموت كما يحب الأعداء الحياة، والآن بالعكس لنكون حسب الصورة الأخرى ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢].

إن الدواء الحقيقي **هو الزهد في الدنيا الفانية**، والاستعداد والعمل للآخرة الباقية، فالدنيا مزرعة الآخرة.

لقد حذر رسول الله ﷺ من تعاطي أسباب الوهن فقال عليه الصلاة والسلام: «والله ما **الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدُّنيا**، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها (من قبلكم) فتهلككم كما أهلكتهم».

وفي ذلك توجيه حكيم بالأخذ من الدنيا بما يصلح العيش دون الركون إليها، وعدم التنافس في مباهجها وملذاتها ونعيمها الزائل، فإن في ذلك الهلكة، كالتخمة التي تقتل صاحبها.

ويتحقق ضياع الدنيا بالإسراف في الشهوات، والتنافس فيها مما يؤدي إلى الدمار والخراب، وهو ما حذر منه القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ

قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، أي إن سبب إهلاك القرى والمدن أن يكثر الترف والبذخ والإسراف في أمور الدنيا، قال المفسرون: أمرنا مترفيها أي أكثرنا أهل الترف المفسدين، أو أمرنا أهل الترف بالصلاح والإصلاح والاعتدال في الإنفاق والتزام الجادة فيما هم فيه، فخالفوا الشرع وعصوا أوامر الله ودينه، وحادوا عن الصراط المستقيم، والتزموا الترف بمباهج الدنيا، فاستحقوا عقاب الله تعالى ومشيئته وسنته، ثم وقع عليها الدمار والهلاك، وهو الجزاء العادل لهم، والعقوبة المناسبة لاجتثاث الفساد والتياث الظلم.

كما يكون دمار الآخرة بعدم الاستعداد لها بادخار الباقيات الصالحات لنيل الثواب، فلا يعمل الناس للآخرة، ولا يحسبون لها الحساب، ويغفلون عنها، فيصيبهم الخزي والدمار(١).

◈ صور حياتية للوهن:

ونعرض هنا بعض النماذج والصور المرئية العملية الواقعية للوهن الذي بينه رسول الله ﷺ وحذر منه، فمن ذلك:

١- الاهتمام بالدنيا، والانصراف لها، والسعي في مطالبها، وعدم وضع حساب للموت والآخرة، بحجة تأمين المستقبل للشخص أو لأولاده، فيجمع الحرام، ويتحايل في الكسب، ويأكل حقوق الناس بحجة الخوف من الفقر، أو للاحتياط لليالي السود، مما يؤدي إلى الاستكثار في جمع حطام الدنيا، فتكون له النائبات بالمرصاد، وتَعَضُّه المصائب بأنيابها، فيقع منكوساً في الدنيا قبل الآخرة.

---

(١) خطب المسجد الحرام ٢٨/٢ بتصرف.

قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ (وهو كل مكان مرتفع) ءَايَةً (بناء علماً للمارة) تَعْبَثُونَ (بمن يمر بكم، وتسخرون منهم) ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، والمصانع هي البيوت المصنوعة تحت الأرض، وقيل القصور المشيّدة والحصون المحكمة، وكأنكم دائمون فيها، لا تموتون، وهيهات وهيهات، فكل من عليها فان، وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولايستقدمون، ولو كانوا في بروج مشيّدة لبرز الذين كتب عليهم القتل والموت إلى مضاجعهم.

وهؤلاء هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

٢- **الإفساد في الأرض**، وذلك كما بينا في تفسير الآية السابقة، ليتم العبث في خيرات الأرض، وإفساد البيئة في الأرض والجو والبحر، ونشر الغازات السامة، وأسلحة الدمار الشامل الذي يقضي على الإنسان والحيوان والنبات، ويستمر عقوداً وقروناً، ويتلف منابع الطاقة والخير للإنسان، فتضيق الأرض بمن عليها، وتشن الحروب لاحتلال مصادر الطاقة، ويدمر الإنسان أرضه بيده، وخاصة بعد أن صارت الأرض قرية صغيرة، وينتقل الوباء بسرعة وسهولة من قطر إلى قطر، كما نسمع عن مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) ومرض الدجاج (سارس) ومرض جنون البقر وغيره.

٣- **طغيان المادة**: وذلك بالإكثار من البذخ والأثاث، والتعلق بالمادة التي تلهي صاحبها عن ذكر الله، وعن الموت، وأشغلتهم حتى عن أنفسهم وروحهم،

فنسوا الله فنسيهم ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ٤٠]، وصار حالهم كما صورهم القرآن الكريم ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: ١٩-٢٠]، ويصير المال معبوداً، وتصبح المادة معشوقة وآسرة لصاحبها فيضحي في سبيلها، فيغفل عما يصونها، وما يحيط بها، وما قد تتعرض له، فيأتيها أمر الله وهم غافلون ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]، [الأنعام: ١٣٢]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤، ٨٥، ١٤٩]، [النمل: ٩٣]، ويأتي بأس الله ولا يرتد عن القوم الغافلين.

٤- **الإنشغال بالشهوات**، وذلك بالحرص على تأمين الشهوات وتلبية الغرائز أشد بمئات المرات من الحرص على الأقصى وفلسطين وبغداد والعراق، لتصبح قضية فلسطين مترعة من المسلمين أولاً بادعاء أنها قضية عربية في عهد القومية في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، ثم تسلخ من العرب ثانياً في زمن التراجع والتردي والانحسار القومي، وبتطبيق مبدأ الإقليمية قبيل نهاية القرن العشرين، لتنتهي إلى قضية وطنية لبعض الفلسطينيين، وتكرر عبارة «المنظمة هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني» مئات المرات من مختلف السياسيين والحكام والإذاعات وأجهزة الإعلام.

وإن ما ينفقه المواطن العادي اليوم، أو الدولة الواحدة، على ما يسمى بالفن والرقص والأفلام والقنوات الفضائية والرياضة أكثر بمئات المرات مما

يقدم لفلسطين والفلسطينيين.

وإذا كنا صريحين مع أنفسنا، وأمام المرآة الصافية لنحاسب أنفسنا فقط ونسأل ما هو مدى اهتمامنا بفلسطين والقدس والأقصى، وهي أغلى بلد علينا؟ وكم تأخذ من تفكيرنا وحياتنا؟ وكم ندفع ونضحي في سبيلها؟ لنرى الجواب ونعرف الحقيقة، وأين هذا من قوله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله».

◈ الموازنة بين الحياة والموت:

عرض القرآن الكريم في آيات كثيرة الموازنة بين الحياة والموت، وحذر بشدة من طغيان إحداهما على الأخرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا

سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨-٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

إن هذه الموازنة بين أمرين، **الأول**: الإفراط في الأخذ بمتاع الحياة الدنيا ومباهجها، والاندفاع وراء تحقيق حظوظ النفس وشهواتها، ولو كانت مباحة، بحجة قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والثاني: التفريط في أمور الدنيا باسم الزهد فيها، والقناعة بالقليل واليسير، مما يسد الحاجة، مع الإعراض عن شؤون الدنيا للاستعداد للآخرة فقط، وكسب الوقت للعمل لدار البقاء، دار النعيم الدائم، بحجة آيات كثيرة تحث على استباق الخيرات، وادخار الباقيات منها قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي

﴿ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ولكن النظرة الإسلامية الصحيحة تنحصر في تحقيق التوازن بين الدنيا والآخرة، وبين الدين والدنيا، وبين المادة والروح، كما قال الشاعر:

ما أجمل الدِّين والدنيا إذا اجتمعا

لتكون الدنيا في يد، والدين والآخرة في يد ثانية، ولتكون المادة في اليد، والدين في القلب، كما ذكرنا في الآيات الكثيرة التي توازن حقيقة بين الأمرين، وفي الحديث السابق «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه» والأثر السابق «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». وبيَّن الحسن البصري، وهو سيد التابعين رحمه الله تعالى، هذه الموازنة عندما سأله أحد الولاة قائلاً: «إن الله عز وجل جعل الدنيا وزينتها لعباده»، وقال عز وجل: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ... قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقال الحسن: «اتق الله أيها الرجل في نفسك، وإياك والأماني التي مِلت إليها فتهلك، إن أحداً لم يعط خيراً من الدنيا، ولا من الآخرة، بأمنيته، وإنما هي داران: **من عمل في هذه أدرك تلك ونال في هذه ما قدر له منها**، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعاً»[1].

إن ذلك توجيه حكيم للأخذ من الدنيا بما يصلح العيش، دون التنافس في مباهجها وملذاتها ونعيمها الزائل، والغفلة عن الروح والقلب والآخرة،

---

(١) الخطب في المسجد الحرام ٢/٢٦ بتصرف.

ويكون ضياع الدنيا بالإسراف في الشهوات والتنافس فيها، ويكون ضياع الآخرة بعدم الاستعداد لها بادخار الباقيات الصالحات لنيل ثوابها[1]. وإن الحضارة الرومانية كانت أرقى حضارة في زمنها، ولكنها حضارة مادية في الأنهار والجسور والحصون والقلاع، فزالت وبادت، ولم يبق لها إلا الشيء الوحيد، وهو الأمر المعنوي العلمي وهو القانون المدني الروماني.

وإن الحضارة الإسلامية استمرت عدة قرون شاهقة متفردة في العالم، ولما اتجهت إلى المادة حصراً في بناء القصور في بغداد والقاهرة وأشبيلية وقرطبة -ولو كانت بالمساجد الفخمة- زالت هذه الحضارة وغابت شمسها عن الأرض.

ولذلك لابد من محاسبة النفس قبل أن تحاسب، وأن تستعد للعرض الأكبر، وتحقيق التوازن، لعودة الحياة والعزة والنصر.

والحمد لله رب العالمين

(١) المرجع السابق ٢/٢٨ بتصرف.

خامساً: الوهن

وباء خطير، ومرض قاتل

يتعرض الفرد والمجتمع والأمة دائماً وباستمرار إلى عوارض متعددة، وظروف طارئة، وتطورات كثيرة، وأمراض مختلفة، ويتفاوت أثر ذلك بحسب طبيعة المؤثر الجديد، وبنيان الفرد والمجتمع، والعوامل المساعدة، وقد ينتاب الفرد أو المجتمع مرض عارض، ويزول بسرعة دون أن يترك أثراً ما، وقد يصاب الفرد بمرض معين، فيقتصر عليه ولا يمتد إلى المجتمع، ولا تحس به الأمة، وقد يتحول المرض من الفرد إلى المجتمع، فيصبح مرضاً قاتلاً، ووباء فتاكاً، ويكون أثره إزهاق الفرد، وإبادة الأمة، وسحق المجتمع.

وأن أمراض الإنسان كثيرة، منها عضوية، ومنها نفسية ومنها اجتماعية، وهي في معظمها أمراض عامة لا تخص فرداً أو مجتمعاً أو أمة، فإذا حلت في فرد أو مجتمع أو أمة فلا بدّ أن تظهر أعراضها، وينتشر خطرها، ويحس بآلامها المصاب وغيره، وقد تفتك بالمريض، وتؤدي إلى العدوى، لتفتك بالمجموع.

ومن هنا تقوم الديانات السماوية، والمفكرون في كل أمة، والمصلحون في كل مجتمع، بمجابهة هذه الأمراض، ووصف الأدوية لها، بل يسارعون إلى التحذير منها لأخذ الوقاية والمناعة قبل أن تحل وتستشري بين الناس، لأن الوقاية خير من العلاج، وبذلك ينقذون أمتهم ومجتمعهم من الأخطار المحدقة، ويجنبون الأفراد من ويلات تحيق بهم، وتهدد وجودهم.

ومن هذه الأمراض الفتاكة التي يشترك فيها الفرد والمجمع، وتنذر الأمة بالويل والدمار مرض الوهن الذي بيّن لنا رسول الله ﷺ أعراضه وأسبابه، وحذر منه.

والوهن في اللغة العربية الضعف، سواء كان مادياً أم معنوياً، وسواء كان في الفرد أو في المجتمع، من وهن يهن وهناً أي ضعف، ويقال وهن عظمه، واسم التفضيل أوهن، ويقال: وهن الرجل أي جبن عن لقاء عدوه، وهذا د اخل في الضعف، وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى في عدة آيات، فقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ ﴾ [النساء: ١٠٤] أي لا تضعفوا، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ولكن الوهن المقصود في هذا المقال هو مرض عضال، ووباء عام بيّنه لنا رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة وثوبان قالا: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قيل: يا رسول الله: فمن قلة نحن يومئذ؟ قال: لا، بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وليترعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت».

وهكذا يكشف الرسول ﷺ أعراض مرض الوهن الذي يبدأ من الفرد، وينتهي بالمجتمع، هذا المرض الذي يصيب الأمم والشعوب فيقضي على

كيانها، ويهدم وجودها، ويسقط هيبتها، ويمحي أثرها، ويزلزل أركانها، ويحطم دعائمها، فتهوى من عليائها وكرامتها واستعلائها إلى أن تركع أمام الأمم الأخرى، وتستخذل أمام الشعوب المجاورة، وتصبح لقمة سائغة للطامعين فيها، بل يكثر الأكلة حولها، ويجتمعون على اقتسامها والقضاء عليها، كما يجتمع الجياع حول الطعام ليتناولوه، ويأخذوه، ويقتسموه، فلا يرفعوا أيديهم عنه، وفي القصعة أثر لوجوده.

هذا المرض بأعراضه وأسبابه يصيب الدول في القديم والحديث، ويؤدي إلى سقوطها وانهيارها، وهو اليوم مقيم بين المسلمين، وقد حط بكلكله عليهم، ونزل بهم الوهن منذ أمد، وكأن الرسول ﷺ ينظر بعين الغيب الذي يطلعه عليه الوحي، ويصور حال المسلمين، وقد تداعت عليهم الأمم الاستعمارية، والشعوب المعادية وتكالبت على أرضهم وبلادهم، وجزأت أوطانهم وديارهم، وسلبت نصيباً كبيراً وعزيزاً من مقدساتهم، وتآمرت ولا تزال تتآمر، عليهم في كل قطر وجانب، وتحيك لهم المؤامرة تلو المؤامرة للإطاحة بهم، وفرض الاستسلام عليهم، وضمان الاستذلال والاستسلام لهم، وتنوع عليهم أساليب الاستغلال والابتذاذ لثرواتهم واقتصادهم، وتفرض عليهم الأفكار الخبيثة، والمبادئ البراقة، والقيم الدخيلة، والقوانين الوضعية، وتغزوهم فكرياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً في عقر دارهم، وتتقاسمهم النفوذ ومناطق السيطرة، وتتقاذفهم ذات اليمين وذات اليسار، وتحفر لهم الحفر ليسقطوا فيها، وترى القطر الواحد يوماً مع الشرق ويوماً مع الغرب، وتارة يستورد أفكاره وقيمه ومواده وأسلحته من هنا، وتارة من هناك، والمسلمون اليوم في ضياع وتمزق، وتردد واضطراب، لا يعرفون ذاتاً لأنفسهم، ولا يعلمون هوية لشخصيتهم، ويجهلون السفينة التي تحطهم، وهم نائمون عن

الرياح التي تتقاذفهم، وقد تكسرت السواري، وسقطت الراية، وهم في بحر لجي، في ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرجوا أصابعهم لا يكادون يرونها من الحجب الكثيفة، والنظارات السوداء التي أحكم العدو ربطها على أعينهم، وشدد الخناق فيها على رقابهم، ولكنّ أعدادهم كثيرة، وثرواتهم ضخمة، ومركزهم استراتيجي، وهم ملايين وملايين، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، لا قيمة له، ولا يثبت على حال، ويقذفه السيل إلى الحضيض، ولذلك فقدوا هيبتهم، وطمع بهم القريب والبعيد، والقوي والضعيف، وسامهم الذل والهوان على أيد عصابات صهيون، وجنود المرتزقة، وتسلط العملاء.

◈ حب الدنيا وكراهية الموت:

وقد شخّص رسول الله ﷺ المرض، وأنه الوهن، ثم شرح أعراضه الظاهرة وأسبابه القريبة والبعيدة، وهي حب الدنيا، والتعلق بها، والافتتان بزينتها، والسعي وراءها، والطمع فيها، وقصور الآمال عليها، واعتبارها المبدأ والمنتهى، والظن بالخلود فيها، وحب الاستزادة من البقاء فيها، وبالتالي كراهية الموت، لأنه يقطع هذه الآمال والأماني، وكأن لسان حال القوم يردّد سخافات الجاهلية من الدهريين وغيرهم، ويقولون: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

إن المرض واحد، ولكن له وجهان متقابلان، وصفتان متلازمتان، وعرضان متحدان، وهما حب الدنيا وكراهية الموت، وهذان العرضان نشيطان ومؤثران، ويتركان الآثار العظيمة، والنتائج الخطيرة، ويدفعان إلى أعمال جمة.

فمن آثار حب الدنيا أن تبدأ من الفرد ثم تصل إلى المجتمع، فتصبغه به، وينتشر الحرص على جمع المال، والانكباب على الكسب بالطرق المشروعة وغير المشروعة، ويظهر التقاتل والتخاصم، والشح والبخل، والشجع والطمع، واللف والدوران في التعامل، والتحايل والتهرب، والسرقة والغصب، ثم يعقب ذلك التخاذل والجبن والخوف والاضطراب، والقلق الشديد من المستقبل.

ومن آثار كراهية الموت أن يغب الإنسان من طيبات الحياة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وألا يعد للموت عدته، ولا يقدم شيئاً أمامه، ويسرف في الملذات، ويسعى لإشباع الشهوات، وينقاد وراء الغرائز، ولو قتل نفسه بنفسه، ثم يهلك ذاته بيده.

ويشرح القرآن الكريم هذا المرض بشقيه، مبيناً أثره وخطره وعاقبته، فيقول تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا (وهي كلمة ردع وزجر وتقريع) سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

◈ حقيقة الدنيا:

وأن حب الدنيا وكراهية الموت يعني أن الإنسان يجهل حقيقة الدنيا، ويغتر بمظاهرها، ويفتتن بمغرياتها، وأن صاحبها قصير النظر، كليل البصر، ينظر بين رجليه، ولا يستعد لأبعد من ذلك، ولا يهيئ نفسه لمستقبل أيامه، ولا يدخر سلاحه وقوته لوقت حاجته، لذلك حرص القرآن الكريم أن يكشف للمسلم حقيقة الدنيا، ويميط له اللثام عن مفاتنها، ويحذره من

الاغترار فيه، وذلك في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، ويبيّن القرآن حقيقة الحياة، ويحذر من فتنتها، فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، كما يقرر القرآن الكريم أشياء كثيرة من زينة الحياة الدنيا، ثم يدعو الناس إلى عدم الوقوف عندها، ويطلب منهم تجاوزها إلى ما هو خير وأفضل، وأحسن وأدوم وأثمن وأبقى، فيقول تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦]، فالدنيا جميلة، وفيها من المسليات والملاهي الشيء الكثير، ولكن ذلك إلى زوال، وأن الحياة الحقيقية، والسعادة الحقة هي في الدار الآخرة، فيقول تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ثم يحذر الرسول الكريم من مفاتن الدنيا، والانشغال بمالها وخيراتها، والتنافس فيها، والغفلة عن الله والآخرة، فيقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت

على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»، وبيّن رسول الله ﷺ قيمة الدنيا، وهوانها عند الله تعالى، وأنه لا قدر لها إذا قصدت لذاتها، وإنما تظهر قيمتها إذا جعلت طريقاً إلى الآخرة، ومزرعة للأعمال، فقال عليه الصلاة والسلام -فيما رواه الترمذي وابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي-: لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»، وحذر الرسول الكريم المؤمنين من استعباد الدنيا وزينتها لهم، فالعاقل لا يكون عبداً للدرهم والدينار، وإلا استحق السخط والغضب، فروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار والدرهم، والقطيفة والخميصة، أن أعطي رضي، وأن لم يعط لم يرض»، وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الدنيا حلوة خضرة، وأن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»، وروى البخاري ومسلم عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»، وهذه الآيات والأحاديث، وغيرها كثير، تحذير للمسلمين من الفتنة بالدنيا، والتعلق فيها، والاغترار بزينتها، وليكون ذلك وقاية لهم من الانغماس فيها، ولكن ذلك لا يعني التخلي عن الدنيا، وترك ما فيها، واعتبراها نجساً كما يحلو لأتباع بعض الديانات المحرفة، بل الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الدنيا ميراث وتركة للمؤمن، ينفقها في سبيل الآخرة، ويشتري بها الدرجات العليا في الجنة، وروى الترمذي عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله، وأن تكون في ثواب مصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك».

◈ الاستعداد للموت:

وهذه النظرة الحقيقية للدنيا، وعدم التعلق بها، وسيلة تربوية حتى يكون المال وغيره في يد المؤمن والعاقل، وليس في قلبه، فلا يستأسره ويسيطر عليه، وإنما يستخدمه لنفع العباد والبلاد، ويسخر ما في يده من خير ليكون أمامه يوم الدين والحساب، وليبقى ذكراً له، وعملاً نافعاً، وأجراً دائماً بعد وفاته، وأن الادخار والبخل، والاكتناز والشح لا يعود عليه بشيء، ولن يخلد في الدنيا، وسوف ينقل إلى القبر، ويدفن تحت التراب، ويبقى المال لغيره، ويكشف لنا رسول الله ﷺ هذه الحقيقة، مبيناً حظ الإنسان من ماله، فيما يرويه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي عن عبد الله بن الشخير أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت»، ولذلك يستعد العاقل للموت، ويهيئ لها الأسباب المحمودة، إن جاءه الموت كان على خير حاله، دون أن يغفل عن هذه الحقيقة التي تلازم البشرية، وأن الدنيا ليست مقراً ولا مستقراً، و لم يخلد فيها إنسان، والموت حق يقيني، ومهما جمع الإنسان في هذه الحياة، فإن متطلباته منها محدودة، وحصيلته مقررة، وانتفاعه محصور، والزائد عنه سيبقى لغيره من الأحياء، ويروح المرء إلى مصيره المحتوم شاء أم أبى، وإن أنفق ماله في الشر والإيذاء فسوف يحاسب عليه، وإن كان رشيداً أنفقه في الخير، واستعد لما بعد الموت، لما روي الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «الكيس (وفي رواية العاقل) من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»، وقد خلق الله الحياة ابتلاء للإنسان واختباراً له، ليستعد إلى لقاء ربه، ويغتنم

الفرصة في حياته، لما رواه الإمام أحمد والحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك».

وكان اليهود يدّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، فوضعهم الله على المحك الحقيقي وطلب منهم تمني الموت إن كانوا صادقين في لقاء الله، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

وفي هذا التوجيه، والتربية الإسلامية يكون الإنسان سوياً وقوياً، ويضمن لنفسه العزة والكرامة، ويحقق لأمته النصر والحياة العزيزة، ويغرس في نفسه المناعة والوقاية من الوهن، ويطلب الموت لتوهب له الحياة، ويترع من قلبه حب الدنيا، ويضع الموت نصب عينيه ليحاسب نفسه قبل أن تحاسب، وفقنا الله لما يحبه ويرضاه، وردنا إلى دينه رداً جميلاً والحمد لله رب العالمين.

سادساً: العمل الصالح

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن **الإسلام إيمان وعمل**، والإيمان يكمن بالقلب، ويستقر في العقل، وهو خاص بين الإنسان وربه، ويتجلى ذلك عند المسلمين بالنطق بالشهادتين، وحضور الصلاة في المساجد، لقول الرسول ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يرتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»[1]، ولأن الإيمان فطرة في النفوس التي فطر الله الناس عليها، وكل مولود يولد على الفطرة.

وينحصر كلامنا عن الشطر الثاني للإسلام، وهو **العمل** الذي يتعلق بكل شخص، ولا يختص بفئة دون أخرى، ولا يختص بالعلماء أو الشباب، أو الرجال أو النساء، بل يتعلق بكل مسلم، مهما كان عمله في الحياة، ومهما كان موقعه في المجتمع، وعلى جميع المستويات.

وإن **العمل لفظ عام** يطلق على الخير والشر، ولكنه عند الإطلاق يراد به عمل الخير، أو العمل الصالح، أو العمل النافع، ونقتصر هنا على الدعوة إليه، والتذكير به حصراً، ومنه يظهر العمل الفاسد ونتائجه، فبضدها تتميز الأشياء، فالخير يقابل الشر، والعدل يقابل الظلم، والصلاح يقابل الفاسد، والفضيلة تقابل الرذيلة، والصدق يقابل الكذب، والكرم يقابل البخل، والرحمة تقابل القسوة، والجنة تقابل النار، ورضا الله يقابله غضبه... وهكذا.

---

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذي ص ٤٩٢ رقم ٣٠٩٣ ط بيت الأفكار الدولية، وابن ماجه ص ٩٦ رقم ٨٠٢ ط بيت الأفكار الدولية، ورواه النسائي والحاكم والبيهقي وأحمد وابن خزيمة عن أبي سعيد مرفوعاً، فيض القدير ١/٣٥٧.

وإن العمل الصالح **لا حدود له**، ويشمل جميع مجالات الحياة في النفس والأسرة، والمجتمع، والمهنة، والوظيفة على مختلف الأصعدة، كما أنه لا يحدد بمقدار، ولذلك تتم الدعوة إلى عمل الخير مطلقاً، ولكن حسب الطاقة والقدرة، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وإن العمل الصالح يشمل العبادة، والأخلاق، والمعاملات الواسعة بين الناس، مع الاعتدال وعدم الإفراط والتفريط ومع تقديم الأولويات، ومراعاة جميع الجوانب دون أن يكون الانصراف لأحدها شاغلاً عن غيرها.

والدليل على أهمية العمل، وأنه شطر الإسلام أن **القرآن الكريم جمع بين الإيمان والعمل** في آيات كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، ومتى بدأت الآية بخطاب المؤمنين فيأتي بعده حتماً خطاب شرعي بالتكليف بأحد الأعمال النافعة الصالحة للدنيا والآخرة، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩].

وإن العمل هو الذي يصور شخصية الإنسان، وهو **معيار التفضيل والتفاضل**، وهو حدٌ التمييز والتمايز بين الناس، لذلك دعا الإسلام إلى المسارعة للعمل الصالح، والتنافس في الخيرات والمبرات والأعمال النافعة، قال

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال رسول الله ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[1] وهي العمل الصالح.

وحذر القرآن الكريم **من الفصل بين الإيمان والعمل**، وندد بالتفريق بين القول والعمل، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، والأحاديث المرهبة من مخالفة العمل للقول والإيمان كثيرة جداً، مع الترغيب الشديد بأن يصدق العمل النافع الظاهر حقيقة الإيمان الباطن.

وإن العبرة في الحياة بين الناس هو بالعمل، لتكون العلاقة الصحيحة بصحة الأعمال، وحسن المعاملة، كما يقول المثل «**الدين المعاملة**» فالإيمان هو صلة بين العبد وربه، أما العمل فهو الأساس في العلاقة بين الناس، بدءاً من أقربهم بالأهل والزوجة والوالدين والأبناء والأسرة، ثم الجيران والمجتمع وسائر الأفراد، ولا مجال في التعامل والمعاملة في الحكم على الشخص لمجرد الإيمان، وادعاء الإسلام، والتباهي بالأقوال.

وإن الحياة الدنيا مع سعتها واتساعها وامتدادها هي **مجال العمل الصالح**، لتقديم الخير والنفع العام لكل الناس، «فالخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»، والحياة الدنيا ذاتها هي المجال الرحب الواسع للخير في الآخرة «فالدنيا مزرعة للآخرة».

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٤١١.

وإن الإنسان يرتقي في المكانة في الدنيا، ويحظى بالفوز بالآخرة بمقدار ماقدم من أعمال، وهو ما قرره القرآن الكريم ميزاناً للعدالة، ومعياراً للنجاح في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

ورتب الإسلام **الجزاء والحساب**، والنجاح والتقدم والتطور على العمل، في الدنيا والآخرة، ونعرض جانباً من ذلك:

لقد اقتضت العدالة الإلهية أن يكون **الجزاء في الدنيا والآخرة من جنس العمل**، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] والآيات في ذلك كثيرة، والأحاديث أكثر من ذلك.

والعمل هو **الأساس للنجاة في الآخرة**، والفوز برضوان الله تعالى في جنة عرضها السموات والأرض، وفي المقابل فإن العمل الفاسد والضار هو القائد لصاحبه إلى جهنم وبئس المصير .

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال عز وجل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وسأل رسول الله ﷺ عن المفلس؟ فقالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار فقال: «المفلس في أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وصدقة، وقد قذف هذا، وشتم هذا وأكل مال هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم وطرحت عليه ثم طرح في النار»[1].

وعلى **مستوى الأمة** فإن النصر والفلاح، والخلافة في الأرض، يتوقف على **الإيمان والعمل**، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وإن الإيمان وحده لايكفي، ولا يتحقق ماوعد الله تعالى به عباده بمجرد العبادة والرهبنة في المساجد والصوامع، ولا بمجرد تلاوة القرآن، والتغني بأمجاد الأجداد، فالمسلمون -حقاً- رهبان بالليل، فرسان بالنهار في الجهاد والعمل بالزراعة والتجارة والصناعة والعلم وتحرير الأوطان، والكفاح، والإعمار، والإصلاح، كما كان السلف الصالح، وأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها، وهو الإيمان والعمل.

وإن **عاقبة العمل مقصورة على صاحبه -غالباً-** في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧] وقال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً

---

(١) هذا الحديث رواه أبو يعلى في مسنده، والبزار، والطبراني عن أنس وابن مسعود رضي الله عنهما مرفوعاً (الفتح الكبير ٢/١٠٥).

وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ولكن قد **يؤثر العمل الفاسد، والشر، على غير فاعله**، ويسري إلى الأسرة والمجتمع، وهنا مكمن الخطر والبلاء، فالشر كالمرض المعدي، والجرثوم الخبيث، ينتقل إلى الآخرين، ويعدي الناس، وهذ مايفسر وضع أمتنا وبلادنا اليوم، ففيها الصالحون الكثيرون، وفيها الأتقياء والعاملون للأعمال الصالحة، ولكنهم وقعوا في شر غيرهم، ونتيجة للفساد المستشري، والانحراف الشديد، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

واكتفي بحديث عن رسول الله ﷺ، وهو حديث خطير، يصور واقع المسلمين اليوم، ويحذر من أثر العمل السيء على المجتمع عامة، وسريان الفساد والأخطار والأضرار، قال رسول الله ﷺ: «لم تظهر **الفاحشة** في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولن ينقص قوم **المكيال والميزان** إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا **زكاة أموالهم** إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم **ينقضوا عهد الله ورسوله** إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذ بعض مافي أيديهم، ومالم **تحكم أمتهم**

بكتاب الله، ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم»[1].

وأختم ذلك بأثر عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يقدم فيه الموعظة المؤثرة، فقال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم»، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، ولذلك قال الشاعر:

وما نيل الأماني بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

(أي بالعمل والجد)

والحمد لله رب العالمين

(١) هذا الحديث أخرجه ابن ماجه ص ٤٣٢ رقم ٤٠١٩ ط بيت الأفكار الدولية، ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد، هذا حديث صالح العمل به ورواه البزار والبيهقي والطبراني، ورواه مالك موقوفاً عن ابن عباس ﷺ (حاشية البوصيري على سنن ابن ماجه ص ٤٣٢).

سابعاً: خطوط فاصلة للتعامل مع الخدم[1]

الإسلام هو دين الإنسانية والرحمة وإعطاء الحقوق لأصحابها، لم يدع أحداً إلا وقد قرر ما له ومن عليه، في هذا الإطار يضع الدكتور محمد الزحيلي، عميد كلية الشريعة بجامعة الشارقة الخطوط العريضة التي رسمها الإسلام للتعامل مع الخدم وغيرهم، فيقول: «أَطَّر الإسلام هذه العلاقة في عناصر وخطوط واضحة وفاصلة؛ أولها: النظر إلى هذا الخادم على أنه إنسان بغض النظر عن دينه أو لغته أو جنسيته، لذا يجب معاملته على هذا الأساس باعتباره مساوياً له في الإنسانية، ثانيها: لا يأمره إلا بما يستطيع، ولا يلزمه إلا بما في قدرته تنفيذه، لا يرهقه بالعمل، ثالثها: أن يتقيد المستخدم بما نص عليه العقد بينهما وبما اتفقا عليه، إذ العقد شريعة المتعاقدين، والمسلمون عند شروطهم، وإن كلفه بما يزيد عما هو متفق عليه فيجب عليه أن يعطيه حقه، وإلا دخل في الوعيد الشديد فيمن يأكل حقوق الناس بالباطل لاسيما هذا الضعيف المسكين، فلقد روي عن النبي ﷺ أنه قال فيمن لا ينظر الله لهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: «من استأجر أجيراً فلم يعطه أجره»، رابعها: أن يعامله كما يحبّ أن يعامله الناس، وليعلم المسلم أن الأيام دول، وليحمد الله على فضله وليشكره على نعمه بحسن طاعة الله فيها، خامسها: لا يجوز شرعاً وخلقاً وديناً استغلال الخدم والخادمات في ما يخرج عن إطار الخدمة في أي ظرف من الظروف.

وإن الخدم إذا ما عوملوا بهذه الطريقة ووفق هذه الأساس فإننا بذلك ندعوهم إلى الدخول في الإسلام بطريق غير مباشر، ومن يقرأ التاريخ يعلم أن

---

(١) الفتح- العدد ٦٨- السنة ٦- ربيع الأول ١٤٢٧هـ- أبريل ٢٠٠٦م.

أمماً وجماعات قد دخلت الإسلام بمعاملة المسلمين وأخلاقهم، وهذه هي مهمة النبي الأولى ومهمة المسلمين من بعده، قال عليه الصلاة والسلام: «إنني بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وفي رواية «لأتمم صالح الأخلاق».

وإن مسؤوليتنا تجاه الخادمات تحتم علينا أن نحافظ عليهن مثل بناتنا وأن نلزمهن بالزي المحتشم وأيضاً أن نمنعهن من الاختلاط؛ وذلك لما يفضي إليه من مفاسد أخلاقية، سواء أكان الاختلاط على مستوى الخدم أنفسهم أم كان الاختلاط اختلاط الخادمة بأبناء الأسرة.

لا بد أن نفهم أبناءنا أن الخادمة ليست محرماً للأسرة، ومن ثم يجب أن نتعامل معها في هذا الإطار، وأن هذا السائق كذلك ليس محرماً لبناتنا، ومن ثم لا يجوز أبداً أن يخلو بهن، والحمد لله رب العالمين.

ثامناً: وباء الإسراف يطال الفقراء[1]

◈ إنه لا يحب المسرفين:

وعن موقف الدين من الإسراف والبذخ حدثنا الدكتور محمد الزحيلي عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة، فقال: إن التبذير والإسراف يكون في المال وغيره وما يجب معرفته أن المال والخيرات من النعم الإلهية وهي أحد ضروريات الإسلام الخمسة التي أمرنا الله بالمحافظة عليها وبما أن المال يملكه الإنسان فهو أمانة مسؤول عنها في الدنيا والآخرة حيث يقول في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وأما في كسبه فيقول إن الكسب الحلال من شروط المال والاعتدال في نفقته واجب، حيث يعبر عنه القرآن الكريم ببعض آياته ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] وتلك إشارة إلى عدم البخل وعدم المبالغة في الإسراف مما يجعله متندم متحسر على ما أنفق.

وأكد أن القرآن الكريم في آيات كثيرة بين أن الله سبحانه وتعالى يكره المسرفين ويعاقبهم فيقول: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، حيث وصف القرآن الكريم كبار الطغاة بأنهم من المسرفين كفرعون وربط الإسراف بالعلو والتكبر للدلالة أنها مذمومة شرعاً، وان الإسراف يؤدي إلى الفساد الاجتماعي والاقتصادي والتربوي واقترن الإسراف والتبذير بالترف من جهة وبالفساد من جهة أخرى.

(١) مجلة أحوال، العدد ٤٧، مارس ٢٠٠٤م.

تاسعاً: صفات الإنسان في القرآن الكريم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الإنسان هو الخليفة في الأرض، وأعلن الله تعالى للملائكة أنه ﴿جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وأن الله تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤].

وإن الإنسان هو الغاية المنشودة لكل ما يجري على الكوكب الأرضي، وهو غاية النظم والتشريعات، وهو محط الأنظار في مختلف العلوم، ولأجله توضع النظريات، وتشرع الأحكام، وتسعى البشرية في إطاره.

وإن الله تعالى أرسل الرسل، وأنزل الكتب، لتحقيق مصالح الإنسان، بجلب النفع له، ودفع الضرر عنه، وتأمين السعادة له في الدنيا والآخرة.

ولذلك فإن أهم صفة وحقيقة عن الإسلام أنه دين إنساني، ولذلك يحاول الناس إطلاق الصفة الإنسانية على كل عمل خير، وبناء، ومفيد، وصالح، ومقصود.

وخاطب الله تعالى الإنسان في القرآن الكريم مباشرة، وفي آيات كثيرة، ثم بين صفاته الايجابية والسلبية التي يتكون منها، وخلقه الله بها، وفطره عليها، ليشيد بالايجابيات، ويعالج السلبيات، ويحذر منها، وليوجه الإنسان إلى الخير والفضيلة، والسعادة والنور، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، بل أنزل الله تعالى القرآن الكريم ليوجه الإنسان إلى الهدى والرشاد، ويحذره من الردى والفساد، ويجنبه نوازع الشيطان، وخطورة الغرائز، ليوجهها إلى الصواب.

ونعرض في هذا المقال أهم صفات الإنسان الواردة في القرآن الكريم.

أولاً: الصفات السلبية في الإنسان: وهي كثيرة، وأهمها:

١- الضعف: قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وهذه صفة ظاهرة في الإنسان، وتحتاج إلى الدعم ليقوى الإنسان، ويسيطر على ضعفه.

٢- العجلة: قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، فيعجل في أشياء كثيرة، وقد يندم عليها، فيحتاج للتروي سواء في حالتي السراء والضراء، بل قد يعجل بالدعاء بالشر عند الغضب والضجر، لذلك صارت صفة مذمومة.

٣- الهلع: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، أي أنه قليل الصبر، شديد الحرص، وهو البخيل الشحيح الشره الضجور، كثير الجزع، والهلع في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، فهو لا يصبر على خير ولا شر، حتى يفعل فيما مالا ينبغي، وفسر القرآن الهلوع بقوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠-٢١]، أي إذا ناله الشر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله الخير بخل به ومنعه الناس.

٤- اليأس: قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾

[فصلت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١]، فاليؤوس أي المقطوع رجاؤه من فضل الله تعالى لقلة صبره، وعدم ثقته به، واليأس: انتفاء الأمل.

٥- **البخل**: قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أي بخيلاً، لأنه يبني أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه، وملاحظة العوض فيما يبذله، والقتر: تقليل النفقة، وهو مع الإسراف مذمومان، والآية تنبه إلى ماجبل عليه الإنسان من البخل.

٦- **الاغترار**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، بمعنى أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه، وسول لك إضاعة ما وجب عليك، وما الذي أمنك من عقابه وهو كريم متجاوز إذا لم يعاقبك عاجلاً، والغرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة، ومن قمة الغرور الشيطان والدنيا.

٧- **الظلم**: وتكرر وصف الإنسان بالظلم في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فهو يظلم النعمة بإغفال شكرها، ويظلم نفسه بأن يعرضها للحرمان، ويظلم الأمانة بعدم الوفاء بحقها ورعايتها، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو زيادة، وإما بالعدول عن وقته أو مكانه.

٨- **الجهل**: قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فهو جهول بصيغة مبالغة بكنه عاقبة ماتحمله، لظنه القوة الكاملة، بينما يوجب العقل أن يكون مهيمناً على تصرفه، محتاطاً للتعدي ومجاوزة الحد.

٩- **الخصومة**: قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، أي منطيق، مجادل، كثير الخصومة والمجادلة، وظاهر الخصومة، أو أنه يبين عن نفسه مايخاصم به من الباطل، والمبين: المفصح عما في ضميره بمنطقه.

١٠- **الجدل**: قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، أي الخصومة بالباطل، وتكرر ذلك في سورة مريم: ٦٦، والزمر: ٤٩، والقيامة: ٥-١٤، والجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الأرض الصلبة.

١١- **الطغيان**: قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]، والطغيان: تجاوز الحد في العصيان والاستكبار والتعاظم، وإن من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء.

١٢- **الكنود**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، والكنود: هو الكفور للنعمة، أو هو الجاحد للحق، وإن من طبع الإنسان كفران النعمة، على تفاوت بين الناس، لأنه ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وقد يذهل أو ينسى حق الله والإنسان.

١٣- **الكفران**: قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وتكرر وصفه بالكفر في عدة آيات، ومعناه: جحود نعم الله وعدم شكرها، ونسيان النعمة، فالكفور: مبالغ في كفران ماسلف له.

١٤- الخسر: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢]، فالإنسان في خسران في مساعيه، والخسر ضد الربح، فالخسران: انتقاص في رأس المال، وهنا استعارة لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه حسن العاقبة.

وهذا الوصف الأخير هو نتيجة للأوصاف السلبية السابقة للإنسان، وهي تؤدي به إلى الخسران المبين والشديد والنهائي إلا إذا استدرك ذلك بالصفات الايجابية، والتي جاءت بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [العصر: ٣]،كما سيأتي.

ثانياً: الصفات الايجابية للإنسان:

قابل القرآن الكريم بين الصفات السلبية السابقة للإنسان، والصفات الإيجابية له، ليتحقق فيه معنى الآيتين الكريمتين ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢-٣]، والصفات الايجابية في الإنسان كثيرة جداً في القرآن الكريم، ونذكر بعضها:

١- الخلافة: إن الإنسان خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، ولكن هذه الصفة تقابل صفة أخرى، كما ذكر الله تعالى في سورة البقرة، فقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]

وتلتقي مع الآية السابقة ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى مؤكداً الصفة الإيجابية للخلافة، بصفة أخرى، فقال عز وجل: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦٠]، أي الاستخلاف للإعمار والبناء، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فالله تعالى استخلف الإنسان في الأرض ليعمرها، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

٢- **الإيمان:** وصف الله تعالى الإنسان بالإيمان في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [آل عمران: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، والإيمان أعلى صفات الإنسان، ويزداد الإيمان ليمنح الإنسان صفات أخرى كالتقوى، والولاية، والقرب لله، والمحبة له، والإيثار...، وغير ذلك.

٣- **العبادة:** قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ووصف الله المؤمنين: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، ثم وصف الله المؤمنات: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ﴾ [التحريم: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]، وأبواب العبادة مفتوحة، وتشمل العبادات الخاصة، وكل عمل صالح قصد به وجه الله تعالى، ومن هنا كانت صفة العبودية لله

تعالى أعلى الصفات والدرجات.

٤- **التوبة**: قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال في وصف المؤمنات ﴿مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]، والتوبة: هي الاقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، لأن الإنسان خطاءً، ولكن خير الخطائين التوابون، ولذلك كانت إحدى صفات الله تعالى أنه «التواب» الذي يقبل التوبة من عباده، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وآيات التوبة كثيرة، وباب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها، وعلى الإنسان أن يحمل مفتاح هذا الباب باستمرار، ويرافقه في الحياة، ليلج رحمة الله، ويكسب مغفرته ورضوانه.

٥- **العمل الصالح**: قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ [البقرة: ٨٢]، والصلاح: هو سلوك طريق الهدى، وقيل: هو استقامة الحال على مايدعو إليه العقل، والصالح: هو مستقيم الحال في نفسه، والقائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد، والكمال في الصلاح هو منتهى درجات المؤمنين، ومتبعي الأنبياء والمرسلين، والصلاح: ضد الفساد، وقوبل الصلاح في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، والصالحات: كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة.

٦- **الإيثار**: قال تعالى في وصف الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين في المدينة المنورة، وأحسنوا ضيافتهم، وآثروهم على أنفسهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ

وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]، وفي اللغة: آثر إيثاراً: اختاره وفضله على نفسه، بعكس استأثر به أي خصَّ به نفسه، فالأنصار خصوا المهاجرين بما حباهم الله به من خصاصة بهم، وفي الحديث قال لهم رسول الله ﷺ عند قسمته الغنائم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديارکم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، و لم يقسم لكم شيء من الغنيمة، فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها، فنزلت الآية التي ختمت» ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي الظافرون بما أرادوا.

٧- **التقوى**: وهي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، أو هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل، أو هي أن يجدك الله حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك، أو هي عمل بطاعة الله، على نور من الله، مخافة عقاب الله، أو هي مجانبة مايبعدك عن الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وتكررت صفات المتقين في آيات كثيرة، وورد في شأنهم وجزائهم ومكانتهم أشياء عديدة.

٨- **الولاية**: بأن يكون الإنسان من أولياء الله تعالى الذين قال فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، فالآية جامعة مانعة في وصفهم، وتحديد أعمالهم، وبيان جزائهم بالبشرى والفوز العظيم، وهؤلاء الأولياء الصالحون العابدون المتقون موجودون في كل زمان، وهم بعيدون عن الرياء، والتظاهر، والتباهي بأعمالهم، والمتاجرة بدينهم، ولذلك كان الله وليهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٩- **الشكر**: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فالإنسان المؤمن العاقل شاكر لله تعالى على نعمه وفضله، والشكر: عرفان النعمة، وإظهارها والثناء بها، والشكر من الله تعالى هو الرضا والثواب، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، [لقمان: ٣١]، والشكور: مبالغة الشاكر، وشكر الله على نعمه واجب، ولكن الشاكرين قلة، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، والشكر الأسمى لله تعالى على نعمه التي لا تحصى، كما أن الشكر للناس على معروفهم فضيلة، وكان من الدعاء المأثور في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [النمل: ١٩]، [الأحقاف: ١٥].

١٠- **الصبر**: قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦، ٦٦]، وصبر: تجلّد، ولم يجزع، وانتظر في هدوء واطمئنان حتى يصبح صباراً أي شديد الصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، والصبر: التجلد وحسن الاحتمال، ويكون الصبر على المكاره والنوائب، كما يكون على النعم والخيرات، والصبر عن المحبوب هو حبس النفس عنه.

إلى غير ذلك من الصفات الإيجابية الكثيرة، وهذه الصفات تكاد أن تكون محصورة بالمؤمن، وتتفاوت درجتها بحسب الإيمان، وتتجلى بالأعمال، وليست فلسفة وصوراً خيالية، بل تحتاج إلى الممارسة والتطبيق والعمل.

ثالثاً: المقارنة بين الصفات الايجابية والسلبية للإنسان:

إن الصفات السلبية للإنسان تؤدي إلى الخسارة والخيبة والهزيمة، وقد تصل إلى شفير جهنم.

والصفات الإيجابية للإنسان هي قارب النجاة التي تحقق الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة.

وجمع القرآن الكريم بين النوعين، وأن الإنسان بصفاته السلبية سيقع في

الخسران، إلا إذا تسلح، واتصف، وقارب، ولجأ إلى الصفات الايجابية، فقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وتعد هذه السورة بآياتها الثلاث تصويراً دقيقاً، وكاملاً للإنسان، ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم» وفي رواية عنه: «لو لم يترل إلى الناس إلا هي لكفتهم»، لأنها تشمل جميع علوم القرآن، وتجتمع فيها العناصر الأساسية للإنسان، ثم تأخذ بيده إلى السداد والفوز والفلاح، وهو ما يصبو إليه، لذلك اقترن الإيمان في القرآن بالعمل الصالح، وتكرر التركيب بينهما في إحدى وخمسين آية بالصيغة الصريحة، واقترن الوصفان في صيغ أخرى في تسع وستين آية، بينما ورد النداء بالإيمان، وأعقبه الدعوة للعمل الصالح في تسع وثمانين آية تتضمن الإرشاد والأمر والتوجيه للمؤمنين نحو العمل الصالح، وهذا يعطي النموذج الفذ الذي يبحث عنه الإنسان في الدنيا والآخرة، ويحقق الصورة المثالية للإنسان الذي جاءت لأجله الديانات والشرائع، وبعث الله الأنبياء والرسل، لتحقيقه، والدعوة إليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

عاشراً: التزكية الروحية للمسلم[1]

إن الإنسان مركب من الجسم والعقل والروح، وإن الجسم مجرد وعاء للعقل والروح، وهو يشبه كوب الماء الذي يوضع فيه الشراب والطيب اللذيذ النافع، الذي يقصده الإنسان، ثم يسلمه إلى غيره، وقد يعتريه الكسر والعطب والتلف في أي وقت، دون أن يؤثر ذلك على بقاء الشراب، والانتفاع به في كوب آخر.

وعقله يجب أن يكون السيد في الخلق، والخليفة في الأرض وعن طريق عقله يحقق مصالحه، ويدبر أموره، ويخترع، ويبدع، ويتعلم، ويكتشف، ويقود جسمه إلى حيث يشاء، ويضعه حيث يأمره عقله، ويختار ما يريد، ليكون مسؤولاً بعد ذلك، ويتحمل جزاء اختياره إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يظلم ربك أحداً.

ثم يأتي العنصر الثالث، وهو الروح، لتتبوأ الريادة والقيادة، وتقطف ثمار الجسم والعقل، وتسمو بالإنسان إلى الملأ الأعلى، وتتطلع إلى السموات العلى، وتعشق الجنة وما فيها، وإذا في الجسم خرجت الروح إلى بارئها، وبقيت سليمة صحيحة في عالم الأرواح، حيث لا فناء لها، ولا وقت يؤرقها، وترفرف الروح الخيرة بعد وفاة صاحبها، وتتابع مسيرة النعيم، أو العذاب، بحسب ما قدَّم صاحبها من أعمال، وما منحها من غذاء، وما زوَّدها من القوة، وما أخذ لها من معطيات الحياة في الخير والشر، فإن كانت النفس مؤمنة مطمئنة، أتاها النداء الرباني في آخر لحظات العمر بالترحاب الإلهي، والاطمئنان إلى الرحيل السعيد، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾

(١) الوعي الإسلام- العدد ٣٩٠- السنة ٣٥، صفر ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

وهذا يوجب على الإنسان أن يحرص على روحه بالتزكية، بأن يغذيها بالخير، وأن يكرمها بالأعمال السامية التي تبهجها في الدنيا، وتحقق لها السعادة قبل الموت، والراحة والنعيم الخالد بعد الموت، والنجاة من العذاب الدائم.

وقد يعبر عن الروح بالنفس، وهذا ما قصده الشاعر المؤمن بقوله ليكون الإنسان إنساناً:

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وإذا أردنا أن نعطي النِّسب، ونوزّع الدرجات من مئة على عناصر الإنسان الثلاثة، فلا يستحق الجسم إلا دون عشرة بالمئة، والعقل أقل من ثلاثين بالمئة، والروح أكثر من ستين في المئة، فالجسم يعيش فترة محددة ومقدرة، ثم يأتيه الأجل المحتوم، والعقل عمره أقل من ذلك، لأنه يتأخر عن خلق الإنسان حتى ينمو، ويكتمل بالبلوغ، ثم يغيب مع الجسم، وتبقى الروح في عالمها الخاص، لا يعتريها فناء، ولا تغيير، حتى تقوم الساعة، وتبعث الأجساد، ويأمر الخالق البارئ الروح أن تعود لقفصها، لتبدأ الحياة الآخرة التي وعد الله تعالى بها عباده، وأقسم بعودتها ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥ و١٦].

لكل ذلك برزت العناية الكبيرة، والاهتمام الواسع في الإسلام في تزكية الروح، وشرع الإسلام لذلك الوسائل الكثيرة، وفي مقدمها الإيمان بالله تعالى، حيث تطمئن الروح، وتبلغ العلياء، وتتصل بربها، وتناجي الخالق البارئ، وتستجيب لنداء الحق، وتأنس بذات الله تعالى وصفاته، قال تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، أي الأرواح، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [الفتح: ٤]، ويوم القيامة يتخلى كل شيء عن الإنسان إلا روحه وقلبه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، ثم تأتي التزكية في العبادات الأربع الأساسية، ففي الصلاة تسمو الروح إلى بارئها، وتتناغم مع الخالق الرحيم الودود الحكيم، وفي الصيام تأنس الروح بالله تعالى، وتقترب منه، في آيات الصوم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، مع أن الجسم في جوع وحرمان، وثبت في الحديث القدسي الصحيح: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» وفي رواية «يدع طعامه وشرابه من أجلي» وتراقب الروح ربها في الصيام، وتمتنع ذاتياً عن الطعام والشراب والجماع، لتتهيأ وتستعد للدخول إلى الجنة من باب الريان الذي خصص للصائمين، وتصل النشوة الروحية أوجها عند إفطار الصائم ليدعو دعاء مستجاباً، ويفرح بفضل الله عليه ونعمته في الدنيا، ثم عند لقاء ربه، ثم تبلغ التزكية الروحية العلياء فوق التصور والتعبير، وبما يعجز عنه اللسان والكلام، في العشر الأواخر من رمضان، وفي ليالي الوتر منه، وفي ليلة القدر خاصة، لتكون للمؤمن خيراً من ألف شهر، في الطاعة والعبادة واللذة الروحية، وكذلك الأمر في الزكاة التي تزكي النفس والروح، وتطهر المال، فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فتعلو

النفس والروح عن المادة، وتبذلها بدون عوض ولا مقابل مادي دنيوي، بل تطمع في جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وتثق برحمة الله الواسعة للمزكين، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ووصف الله المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤]، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]، ثم يأتي الحج الذي تتألق فيه الروح شوقاً لله ورغبة وأملاً ودعاء، ثم يتحقق بالإحرام، والانخلاع عن الملابس العادية، والتوجه إلى الله تعالى بالتلبية والنداء، والشوق المتسارع لرؤية البيت الحرام، والتمتع برؤية الكعبة المشرفة والقرب منها، حيث تنعتق الروح وكأنها خارج الجسد، وينسى الحاج والمعتمر الدنيا وما فيها حتى أهله وذويه ونفسه، وينظر بروحه إلى ذكريات الحرم، ومبعث النور، ومنابت القادة والسادة، ومنابع القيم والفضائل، ويستسلم استلاماً كاملاً -عند الملتزم، والحِجْر- لرضاء الله ومشيئته، ثم تتسامى التزكية الروحية إلى العلياء عند الوقوف بعرفات، ورفع الأكف للدعاء، والاستعداد للنفرة إلى مزدلفة ومنى، وقد أدركت الروح مناها بالمغفرة، ثم تتشوق من جديد روحياً إلى لقاء البيت والحرم والكعبة بعد غياب يوم واحد جليل.

وتتابع التزكية الروحية بعد العبادات الخاصة مسيرتها عن طريق الأدعية والأذكار المأثورة التي ترقق القلب، وتهذب النفس، وتمنح الروح الرضا والطمأنينة، ويخلو الإنسان بنفسه مع روحه، يناجي ربه بالأسحار والأسفار، وعند طلوع الشمس وعند الغروب، وفي أدبار الصلاة وإدبار النجوم، ويكون

لسانه رطباً بذكر الله تعالى، وترفرف الروح شوقاً إلى ربها، وتطير فرحاً بارتقائها، لتستجيب لدعوة الحق تبارك وتعالى القائل: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، والقائل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، والقائل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، والقائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]، والقائل: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وهنا يتحقق للنفس الفلاح، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٥-١٦]، وقد وصف الله تعالى عباده الصالحين بطمأنينة القلب بالذكر، فقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

وتستمر التزكية الروحية بتلاوة القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار، وتتذوق الروح بكلام الله تعالى يخالج جنباتها، وقد جعله الله تعالى وسيلة للتزكية والتربية، فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١]، كل ذلك بفضل الله تعالى ورحمته على الإنسان في خلقه.

إن الله تعالى خلق الجسم ومنحه العقل، ولكنه تفضل على الإنسان أكثر

وأكثر فمنحه الروح التي وهبها الله تعالى من ذاته للإنسان، فقال تعالى عن خلق الإنسان: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩]، ليتدرج الإنسان في مراقي الكمال والرفعة والفلاح، ويتصل بروحه مباشرة بالله الخالق المدبر، دون وساطة كهنوتية ولا وسيلة مادية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

وإن المتعة الحقيقية للإنسان في الدنيا والآخرة ترتبط بالروح وشفافيتها، وسعادتها، وتحررها وانعتاقها، وتهذيبها، وتزكيتها، وصلتها بالله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، ولا تتأثر بصحة الجسم أو مرضه، فنرى في الدنيا كثيراً من الناس أصحاء الجسم والعقل، ومع ذلك يشعرون بالضيق والعذاب النفسي، والقلق الروحي، والاضطراب الداخلي، وهو الشائع اليوم في العالم عادة وفي الغرب المادي بخاصة، فإن سئلوا عن وجع أو ألم نفوا ذلك، وإن عرضوا على طبيب لحكم بصحة الجسم وسلامة العقل، ولكن الروح تتألم، والنفس تتعذب ولا تحتاج إلا للتزكية الروحية، والدواء السماوي، والصلة الربانية، وتفتقر إلى الغذاء الروحي لتهدأ النفس، وتعود إلى طبيعتها وسلامتها وعافيتها ونشاطها، بينما نرى كثيراً من الناس المرضى بأجسامهم الذين يتألمون من الداء، ويعانون من أعراضه، حتى يشفق عليهم الطبيب والأهل والناس، ومع ذلك تجدهم في راحة وسعادة، ولا يتحرك لسانهم ببنت شفة، ولا ينطق بتأوه أو ضجر، لأنهم سعداء بأرواحهم التي تسمو فوق الأمراض والأوجاع، يأنسون بالله تعالى، ويهيمون بذكر الله تعالى، وينسون آلامهم، وهذا ما يفسر تلك العملية الجراحية لأحد التابعين عندما قرر الأطباء فيها بتر ساقه، وحاولوا إقناعه بتحمل أوجاعه، فقال بكل ثقة، وهدوء وطمأنينة: (إني

سأنوي الصلاة، فإذا استغرقت فيها بتلاوة القرآن فاقطعوا الساق، وهذا ما حدث، وفعلوا ذلك دون أن يشعر بألم أو ضجر).

وهذه التزكية الروحية والسعادة الذاتية هي ما قصده العالم الرواني الرباني الجليل عبد الله بن المبارك عندما قال: «نحن في متعة وسعادة، لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها».

وهذه السعادة الروحية لا تفرق بين غني وفقير، فكثير من الفقراء أسعد حظاً وأشد سعادة مع غنى النفس من أغنياء المال، ولا يحجزهم الفقر عن الصلة الوثيقة بالله تعالى والثقة به، والطمع بما عنده، والعمل على مرضاته، والقرب منه.

كما أن هذه التزكية الروحية والسعادة بها لاتنحصر بالعلماء والمتعلمين، أو بصنف من العلماء أو تخصص معين من العلم، فهي سعادة عامة، نلمسها بين غير المتعلمين كما نجدها عند المتعلمين، ويتجه الجميع إلى التقوى التي اعتبرها الشرع الحنيف المعيار والميزان للتقدم والتفضيل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، لذلك اتخذوا التقوى والغذاء الروحي وسيلة للعمل اللدني عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، كما تزودوا بالتزكية الروحية للأنس بجنب الله تعالى، والحرص على التقرب منه، والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاري: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

إن التزكية الروحية للإنسان غذاء الروح للسمو والشفافية، وهي أشبه بالأوكسجين الصافي لجسم الإنسان، فإن تلوث الهواء تعرض الإنسان للمتاعب، وأصبح بؤرة للأمراض والجراثيم، واحتاج إلى النقاء من جديد، وهذا هو شأن الروح التي تسمو بالذكر والتزكية، وتسعد بصلة الله تعالى، وتنظر بنور الله، وتصبح رؤيتها صادقة نافذة، كما قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى»، بينما تأتي الذنوب والمعاصي لتكون دَرَنة على القلب، تتراكم شيئاً فشيئاً حتى تطمس نوره، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وبعد: فإن السعادة الروحية في الدنيا هي سبيل السعادة الخالدة في الآخرة، لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وهو ما ورد على لسان المؤمنين من أهل الجنة، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، وإن أهل التقوى، والسعادة والرضا، والعبودية لله تعالى في الدنيا، هم الفائزون بنعيم الجنة في الآخرة.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا نفساً مطمئنة، وقلوباً خاشعة، وتزكية روحية وسعادة نفسية، وتقوى كاملة، لنحظى بمرضاة الله تعالى في الدنيا، وعفوه وكرمه وأفضاله في الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

حادي عشر: لا تغضب

إنها **نصيحة ثمينة**، تتكرر يومياً على الألسنة، وتتردد على الأسماع، يقدمها الصديق لصديقه، والأخ لأخيه، والأب لابنه، والوالد لولده، والزوج لزوجه، والمعلم لطلابه، والموظف للمواطن، والقائد لجنده، والكبير للصغير، والحكيم لأحبائه.

إنها **نصيحة ربانية خالدة، وتوجيه نبوي كريم**، وموعظة رشيدة، وتربية قويمة، وحكمة صادقة سديدة، ودواء نافع، وقاعدة شرعية، وهي علاج نفسي، وسلوك اجتماعي، وموقف حميد.

والأصل في هذه الموعظة أنها جاءت في حديث شريف وصحيح، وقصتها أن أحد الصحابة جاء إلى النبي ﷺ يستنصحه ويسترشده، فقال له: «أوصني» أي بما يعود عليَّ بالنفع، ويجمع بين خيري الدنيا والآخرة، وفي رواية: «أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، ولا تكثر عليَّ، لعلي أعقله» فقال له عليه الصلاة والسلام: «**لا تغضب**» فأعاد السؤال مرة ثانية، فقال له: «لا تغضب» واستزاد النصح والوصية مرة ثالثة، فقال له: «لا تغضب»[1].

والغضب **تصرف لا شعوري**، وانفعال لا إرادي، يُهَيِّج الأعصاب، ويحرك العواطف، ويعطل التفكير، ويفقد الاتزان، ويزيد في عمل القلب، ويرفع ضغط الدم، ويزداد تدفقه على الدماغ، وتضطرب الأعضاء، ويظهر ذلك بجلاء على ملامح الإنسان، فيتغير لونه، وترتعد فرائسه، وترتجف أطرافه، ويخرج عن اعتداله، وتقبح صورته، ويخرج عن طوقه، فإن لم يكبح

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري والترمذي وأحمد والحاكم عن أي هريرة ﷺ مرفوعاً (نزهة المتقين ١/٨٠، ٥٢٣، فيض القدير ٦/٦١٣).

جماح نفسه تفلَّت لسانه فنطق بما يشين من الشتم والفحش، وامتدت يده لتسبقه إلى الضرب والعنف والقتل، وقد يدفعه الغضب إلى لطم خدمه، وتمزق ثيابه، ورمي نفسه، وقد يغمى عليه، ويفقد أعصابه واتزانه.

وإذا استسلم المرء لعوامل الغضب وأسبابه ودوافعه أصبح فريسة سهلة لأمراض نفسية وجسمية، لأن الغضب يؤدي إلى ارتفاع الأدرينالين والتروكسين في الدم بنسبة كبيرة، ويسبب في قرحة المعدة، والسكر، وتقلص القولون، وأمراض الغدة الدرقية، والذبحة الصدرية، وهي أمراض عضوية، منشؤها عوامل نفسية[1].

والغضب مفسدة للأعمال، ومنقصة للعقل، وكل من تصرف بقول أو بفعل أثناء غضبه، ثم زال عنه، ندم غالباً على ما صدر منه، وبدأ بلوم نفسه، وتأنيب ضميره، وتقييم أعماله، والرجوع عن أحكامه وآرائه، لذلك ورد تحذير الحكام والولاة من الغضب، فقال رسول الله ﷺ: «إذا استشاط السلطان تسلط الشيطان»[2]. أي إذا التهّب، وتحرَّق من شدة الغضب، وصار كأنه نار، تسلط عليه الشيطان، فأغراه بالإيقاع بمن غضب عليه[3].

وجاء النهي للقضاة عن الحكم أثناء الغضب، فقال رسول الله ﷺ: «لا يَقْضِيَنَّ حاكم بين اثنين وهو غضبان»[4].

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته المشهورة لأبي موسى الأشعري عندما أرسله قاضياً إلى البصرة: «إياك والغضب، والقلق، والضجر،

---

(١) الوعي الإسلام، الكويت، عدد ١٥٣، السنة ١٣، رمضان ١٣٩٧، ص٩٦.

(٢) هذا حديث صحيح رواه الإمام أحمد والطبراني عن عطية السعدي رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) النهاية في غريب الحديث ٥١٨/٢.

(٤) هذا حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأحمد وأصحاب السنن الأربعة.

والتأذي بالناس، والتنكر عند الخصومة»[1].

وقال الصحابي حارثة بن قدامة ﷺ الذي سأل رسول الله ﷺ بما سبق «ففكرت، فإذا الغضب يجمع الشر كلّه»[2].

وعند الغضب تثور النفس، وتحمل صاحبها على التصرف الفوري كرد فعل مباشر، وحباً بالانتقام، وبدون تروٍ أو محاكمة.

ولكن **الغضب أمر فطري**، جُبل عليه الإنسان عند توفر أسبابه ودواعيه، وقد قرر علماء الشرع أنه لا يصح التكليف بالأمور الفطرية الجبلية التي خلق الإنسان عليها، ولا كسب له فيها، ولا اختيار له في وجودها، ولا قدرة له على جلبها، ولا على دفعها، كالانفعال عند الغضب، فكيف يرد النهي عن الغضب، وهو أمر فطري جبلي؟

والجواب أن النهي في هذه الحالات لا يقصد منها ظاهرها، وأن التكليف الشرعي يرد على أسبابها، أو على نتائجها، فالنهي عن الغضب ليس تكليفاً بالكف عن الغضب لأنه أمر فطري جبلي طبعي عند وقوعه، وإنما هو تكليف بالامتناع عن الدخول في أسباب الغضب، والابتعاد عن مواطنه ما أمكن، فإن وقعت الأسباب وحصل الغضب فعلاً، ورد النهي عما يعقبه من ترك الانتقام، وعدم الخروج عن الحالة الطبيعية للإنسان العادي، وعدم اتخاذ

---

(١) هذا الكتاب رواه الدارقطني (٢٠٦/٤) وأحمد وأبو داود والترمذي والطبراني والبيهقي، وذكره معظم الفقهاء (انظر: أعلام الموقعين ٩١/١، المبسوط للسرخسي ٦٣٠/١٦، الأحكام السلطانية للماوردي ص٧١، أخبار القضاة لوكيع ٧٠/١، ٢٨٣، روضة القضاة ١٤٧٨/٤، تبصرة الحكام ٢١/١).

(٢) هذا الأثر رواه الإمام أحمد (٣٧٣/٥).

القرارات الفجَّة، والأحكام المستعجلة التي تردي صاحبها، وتسوقه للندم عليها والتراجع عنها[1].

ودواء الغضب أمران:

الأول: دواء سلبي، وهو اجتناب دواعي الغضب، ووجوب الامتناع عن التصرف الآتي لحظة الغضب، وكبح جماح النفس، وضبط اللسان عن النطق، وكف اليد عن التحرك.

والأمر الثاني: إيجابي: وهو أن يتجه الإنسان إلى الانشغال بعمل آخر، وبخاصة إلى ما فيه طاعة لله تعالى، وقرب من رب العالمين، وفي هذه الحالة تهدأ الأعصاب ويعود الدم إلى عروقه وشرايينه، ويُطرد الشيطان، ويستعد الدماغ والفكر إلى الإنتاج الصحيح، والتصرف الرشيد، والعمل السليم، لذلك أرشد رسول الله ﷺ إلى الوضوء، لإزالة آثار الغضب، لأن الماء يطفئ حرارة الجسم، أو يخفف عنه، أو يهدئ الأعصاب، ولذلك حذر رسول الله ﷺ من الغضب فقال: «اجتنب الغضب»[2]، وقال أيضاً: «إن الغضب من الشيطان»[3].

وأرشد رسول الله ﷺ المسلم إلى امتلاك نفسه عند الغضب، فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصُرعة (أي الذي يَصْرع الناس والأبطال)، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[4].

---

(١) أصول الفقه الإسلامي، لنا ص ٣٨٢.

(٢) رواه الإمام أحمد (٤٠٨/٥).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٢٦/٤).

(٤) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود ومالك وأحمد (٣٨٢/١، ٢٣٦/٢، ٢٦٨).

وإذا امتثل الإنسان بهذه النصيحة «لا تغضب» كان جزاؤه عظيماً في الدنيا والآخرة، بضبط النفس، واتزان الشخصية، وتغليب العقل على الهوى والعواطف ونوازع الشيطان، فيصدر الأحكام بحكمة وروية، وهذا -بحد ذاته- خزي للشيطان، ومرضاة للرحمن، وفوز بالجنة، وهو ما بينه رسول الله ﷺ في حديث آخر فقال: «لا تغضب ولك الجنة»[1].

ولكن الغضب يصبح محموداً إذا كان لله تعالى، وعند انتهاك حرماته، والغضب لنصرة دينه، ولإحقاق الحق، وللوقوف في وجه الباطل، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله، وذلك في أحاديث كثيرة.

نسأل الله تعالى أن يجنبنا أسباب الغضب، وأن يرزقنا العون للتغلب على الغضب، وأن يوفقنا لاجتناب آثاره، والعمل في مرضاة الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

(١) هذا الحديث رواه الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه بسند صحيح (فيض القدير ٤١٤/٦، الفتح الكبير ٣٣٠/٣).